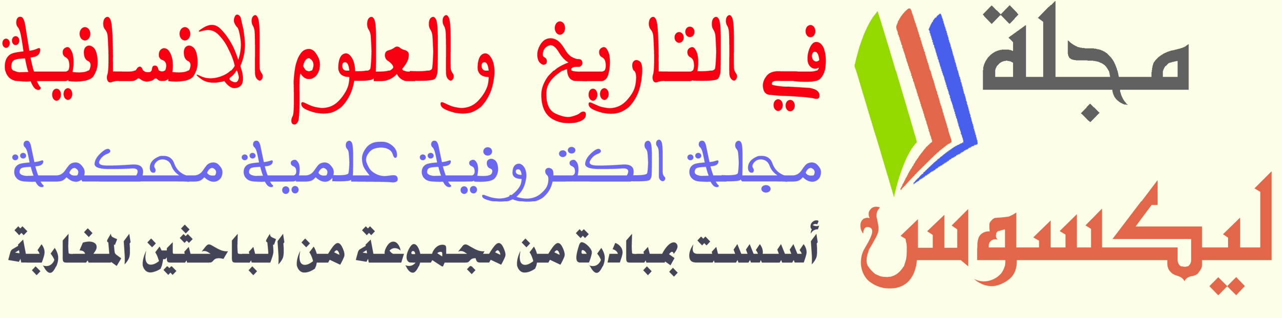




العدد الثامن - دجنبر 2016

المساهمون في هذا العدد:

- خالد الصقلي
- محمد حماس
- عبد الرزاق السعيدي
- مصطفى أبسان
- خالد الغالي
- خالد أوعسو
- محمد أبيهي
- عبد الحكيم الزاوي
- رضوان ايت اعزى
- موسى المودن
- محمد العاقل



مواقع الكترونية مفيدة:

الجمعية المغربية للبحث التاريخي: www.amrh.ma

موقع الاستقصا: www.alistiqsa.com

بوابة تاريخ المغرب: www.maroc-histoire.net

ملف العدد:



الكنوز بسوس بين الخبايا والدسائس ومافيا النفائس



إميلي: شريفة وزان

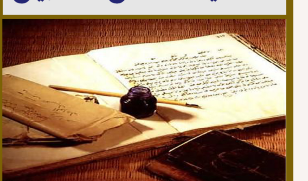




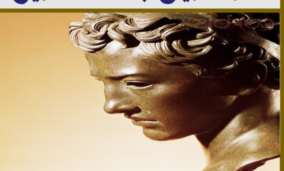
تثمين التاريخ الشفهي



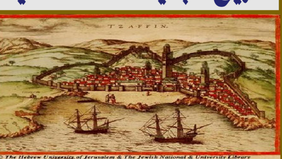
قضايا مناهج التاريخ



من تاريخ بلاد الأمازيغ



تاريخ البنيات الاقتصادية



قضايا من علم الاجتماع



صورة العدد



شريف وزان وزوجته البريطانية Emily KEENE

www.maroc-histoire.net lixus@maroc-histoire.com



- مناهج التاريخ . التاريخ الشفهي . التحقيب التاريخي - رحلة شارل دو فوكو الى شمال المغرب
- قضايا من علم الاجتماع . العلاقات المغربية الجزائرية . البنيات الاقتصادية وواقع المبادلات البينية بالمجال المغاربي:نهاية العصر الوسيط . مفاهيم ومقاربات نظرية في دراسة المجتمع المغربي . إميلي:شريفة وزان

جميع الحقوق محفوظة لمجلة ليكسوس الالكترونية
المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

المدير المسؤول:محمد أبيهي





من ثمرات المطابع











الهيئة العلمية لمجلة ليكسوس الالكترونية:

خذيجة الراجي
- أستاذة التعليم العالي بجامعة ابن زهر بأكادير في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بشعبة التاريخ.
- باحثة متخصصة في تاريخ الجنوب المغربي.
- عضوة هيئة التحرير ومنسقة محاور المجلة.

البريد الالكتروني: khadija_rajy@yahoo.fr

محمد أبيهي
- باحث في تاريخ المغرب المعاصر
- حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
- عضو هيئة التحرير ومدير المجلة

البريد الالكتروني:oubihi2007@gmail.com

مصطفى الريس
- باحث في تاريخ المغرب المعاصر
- حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أبي شعيب الدكالي بالجديدة.
- عضو هيئة التحرير

البريد الالكتروني mustapharais149@gmail.com



خالد أوعسو
- باحث في تاريخ المغرب المعاصر
- حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
- عضو هيئة التحرير

البريد الالكتروني: ouassouk@yahoo.fr



عبد الرزاق السعيدي
- باحث في تاريخ المغرب الوسيط
- حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس.
- عضو هيئة التحرير

البريد الالكتروني:saidiabonihal@gmail.com





فهرس محتويات المجلة

كلمة الإفتتاح:

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم هذا العدد من هذه المجلة الالكترونية الفتية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس الالكترونية على كل الباحثين من مختلف تخصصات العلوم الانسانية، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين، وإيمانا من طاقم المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالجامعات المغربية.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية.

وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء هذا العدد من مجلة ليكسوس الالكترونية، وموعدنا سيتجدد إن شاء اللّه في العدد المقبل من هذا المولود الالكتروني الجديد ، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية
البريد الالكتروني:
lixus@ maroc-histoire.com
lixus.magazine@gmail.com
الموقع الالكتروني:
www.maroc-histoire.net



صورة العدد: إميلي شريفة وزان



بقلم خالد الغالي

لم تكن الشابة البريطانية إميلي كين تتوقع، بزيارتها لمدينة طنجة، أن تنقلب حياتها رأسا على عقب بعد الزواج من زعيم أحد أكبر الزوايا في مغرب النصف الثاني من القرن الـ91 ,وتقضي هناك حوالي 04 سنة توجتها بكتاب عن حياتها.

في خريف سنة 1872، وصلت إلى ميناء مدينة طنجة شابة بريطانية تدعى إميلي كين، واشتغلت مربية أطفال لدى عائلة أمريكية معروفة. قبل ذلك بـ23 سنة، ولدت هذه الفتاة في لندن لأب يعمل مديرا للسجن وأم من عائلة مسيحية معروفة.

في إحدى السهرات، وقعت إميلي تحت أعين شيخ زاوية مهيبة، الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني كبير الزواية الوزانية، فطلبها للزواج. كان هذا الزواج الأول من نوعه في تاريخ الزوايا بالمغرب، أغضب السلطان محمد بن عبد الرحمان، وأثار حنق علماء فاس، وأكسب صاحبه مزيدا من العداء دفعه ليرتمي في أحضان الحماية الأوربية. لكنه بالنسبة إلى "شريفة وزان"، وهو اللقب الذي باتت تحمله إميلي، بداية حياة جديدة في الإمبراطورية الشريفة، امتدت لأكثر من 70 عاما، عاصرت فيها ستة ملوك علويين. سنة 1911 أصدرت إميلي كين، في لندن، كتابا تحت عنوان "My Life Story" (قصة حياتي)، دونت فيه مسيرة 40 سنة عاشتها وسط المغاربة.

زواج محاصر

عندما حلت إميلي كين بمدينة طنجة لم تكن تتوقع قط أن قصة حياتها ستنتهي بالزواج من زعيم أحد أكبر الزوايا في مغرب النصف الثاني من القرن 19. "تعودت أن ألتقيه وهو قادم من المدينة

أو عائد إلى الجبل (حي الجبل الكبير)، حيث أقطن مع أصدقائي. مع مرور الوقت، عرفت أنه شريف وزان الكبير. في الحقيقة، لم يعن هذا لي شيئا كبيرا. تعرفت إليه أكثر في السهرات الموسيقية التي يحضرها. كنت متأكدة أنه يروق لي، فقد كان مختلفا عن باقي المغاربة الذين قابلتهم، لكن فكرة الزواج لم تخطر ببالي قط"، تقول إميلي كين عن الحاج عبد السلام.

على الطرف الآخر، لم يكن الأمر مفاجئا لكبير شرفاء وزان، فمنذ مدة غادر مهد الزاوية نحو طنجة – بعدما طلق زوجاته المغربيات- عاقدا العزم على الاقتران بـ"رومية". منذ صغره، لم تكن ميولاته الأوربية تخفى على أحد.

رفضت إميلي عرض الزواج، متحججة بدواعي دينية، إلا أنها سرعان ما أذعنت بعدما "عرفت أن الحياة ستكون مستحيلة لي من دونه". على الفور، أرسل الحاج عبد السلام سكرتيرته إلى لندن للحصول على موافقة والدي الفتاة البريطانية. "كانت المعارضة قوية جدا من جهة عائلتي ومن عائلته أيضا"، تقول إميلي.

في الأخير حل الوالدان بطنجة، ووقع عقد الزواج أمام عدلين مسلمين، قبل أن يوثق مرة أخرى في المفوضية البريطانية تحت أعين جون دراموند هاي، سفير بريطانيا في المغرب. في عقد الزوج، فرضت إميلي شروطها: تعهدُ الشريف بعدم الزواج عليها، حقها في الاحتفاظ بديانتها، الاستقرار في مدينة ساحلية، ولوج أبنائها إلى التعليم، الاستفادة من حماية دولتها، ودفنها في بلدها بعد الوفاة. في مقابل ذلك، تقرر أن يتبع الأطفال ديانة والدهم: الإسلام.

لم يكن الزواج من امرأة غير مسلمة أمرا عاديا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ناهيك أن يصدر هذا عن شيخ زاوية كبيرة. وسرعان ما تأكد شريف وزان من ذلك، فقد أبدى السلطان محمد بن عبد الرحمان معارضة شديدة للزواج، وقاد علماء القرويين من على منابرهم حملة قوية ضد شيخ الزاوية الذي لم يملك سوى الاحتماء رفقة زوجته بالمفوضية الفرنسية، حتى قبل أن يكمل زواجهما شهره الأول.

في طنجة، بعث النائب السلطاني محمد بركاش إلى السفير البريطاني جون دراموند هاي رسالة ينبهه فيها بأن إميلي كين أصبحت منذئذ مغربية ويتوجب عليها الخضوع للقانون المغربي: "(...) بلغنا أن الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن سيدي الحاج العربي الوزاني، تزوج بامرأة نصرانية إنجليزية، وتعين علينا إعلامك بأن المرأة المذكورة صارت الآن مراكشية (أي مغربية) بسبب



تزويجها للشريف المراكشي، ولا يمكن الحكم عليها وعلى مطالبها إلا بحكم شريعة المسلمين. كما لا يخفاك أن كل أرض تتمشى على قوانين شرعها، وأعلمناك لتكون على بصيرة (...)".

إنجليزية بين المريدين

بعد الزواج بقليل، انتقلت إميلي للعيش في منزل الشريف الذي لم يكن غير زواية. هناك اكتشفت واقعا جديدا وصفته بدقة في كتابها: "منزل الشريف كان في الوقت نفسه زاوية، يرتادها حشد كبير من الناس – أغنياء وفقراء- للبحث عن العون في حل مشاكلهم العديدة. الباحثون عن مأوى وذوو الشكايات يمكن لهم أن يقيموا هناك لمدد تقصر أو تطول، قد لا تتعدى ساعات معدودة وقد تصل إلى أشهر، حسب الوقت اللازم للانتهاء من قضيتهم. في الزاوية، تجد الأم التي تتضرع من أجل ابنها المرمي في السجن، أو المرأة من أجل زوجها، يمكن أن تصادف أشخاصا جاؤوا للمطالبة باسترجاع حقهم في ظلم تعرضوا له من فرد من العائلة، وآخرين سجنوا بدون حق من قبل أعوان السلطة. هناك تصادف المشتكي، والمرأة المتشردة، والمريض، والمرأة العاقر. كلهم جاؤوا من أجل راحة تمنحها البركات".

كي لا يبقى هذا العالم الجديد كتابا مغلقا في وجهها، وجدت إميلي أن الحل يكمن أولا في تعلم العربية. "في غضون أشهر قليلة"، تقول شريفة وزان، "استطعت أن أميز بعض الكلمات، ثم بعض الجمل مع نهاية السنة... اليوم أتكلم بطلاقة لهجة أهل طنجة، لكن صفاء لكنتي لا يبعث على الرضا، ويثير ضحكات أحفادي الصغار".

في المقابل، لم يفت إميلي أن تدخل لمستها الأوربية الخاصة على الجناح الذي تحتله في البيت/الزاوية، كما حرصت على تربيتها ابنيها مولاي علي ومولاي أحمد، الذين ازدادا على التوالي سنتي 1874 و1876، على الطريقة الأوربية، فقد كان الصغيران يتكلمان الفرنسية والإنجليزية حتى قبل أن يكمل أكبرهما عامه الثامن.

عاشت إميلي كين حياة هانئة مع زوجها مدة 11 سنة، قبل أن تنقلب الأمور رأسا على عقب ابتداء من صيف سنة 1884. تلقى شريفة وزان بالمسؤولية على أوربي من جنسية فرنسية أشارت إليه بالحرف X. حسب إميلي، تسبب هذا الشخص في تأليب مشاعر الحاج عبد السلام ضدها، كما حاول رفقة أوربيين آخرين الاستيلاء على أمواله بطرق ملتوية. بالتزامن مع ذلك، فوجئت شريفة وزان بتغيير جذري في عقل زوجها، فقد تملكه هوس سيطر على تفكيره بالكامل. كان الشريف يعتقد أنه مهدد بالاغتيال في أية لحظة من قبل السلطان المولى الحسن، ولم تنجح الحماية الفرنسية التي يتمتع بها من تخفيف وطأة الفوبيا التي أصابته، دون أن تستبعد فرضية تسميمه، تؤكد إميلي

أن ''القدرات العقيلة للشريف لم تعد كما كانت سابقا، لقد أصبح مهووسا بفكرة واحدة: الخوف من اغتياله''. لم يعد كبير شرفاء وزان ينام، إلا وخنجر مغروز تحت وسادته ومسدسان محشوان فوق طاولة السرير.

مع مرور الوقت، تصاعدت حدة الخلاف بين الشريف وإميلي إلى درجة القطيعة، دون أن يصل الأمر إلى طلاق رسمي. رغم ذلك، لم تتخل السيدة البريطانية عن زوجها، بل قادته سنة 1890 في جولة ضمت عددا من المدن الأوربية، أملا في شفائه. في ليفورنو بإيطاليا، رفض حتى النزول من الباخرة، بعدما وصل إلى علمه وجود عدد من المغاربة في المدينة. كان يتوهم أنهم من رجال المولى الحسن قدموا لاغتياله. وفي نابولي التي أعجبته كثيرا، أغلق عليه أبواب غرفته رافضا الذهاب إلى أي مكان، فقط لأن المدينة كانت بها بعثة سفارية خاصة بالمغرب. نجحت إميلي بصعوبة في إقناعه بالجلوس في شرفة الفندق حتى يشهد مرور ملكة إيطاليا في عربتها الملكية. الأطباء بدورهم، كانوا يذهبون إليه في الفندق للاطلاع على حالته الصحية.

بعد عامين على هذه الرحلة، توفي شريف وزان في مدينة طنجة يوم 28 شتنبر 1892. كتبت إميلي تصف لحظاته الأخيرة: «بدا وكأن يده تبحث عن شيء ما. وضعت يدي في يده، فضمها بقوة متشنجة، ثم فتح عينه وهمس قائلا: «عزيزتي، هل أتيت ؟». كانت هذه كلماته الأخيرة.

شيخ زاوية ليس كالآخرين

عندما تتحدث إميلي عن الحاج عبد السلام الوزاني، فإن ذلك يكون من منطلق الإعجاب الشديد: إنه ''ليس مثل باقي المغاربة''، ''مختلف عن الآخرين'' يتمتع بذكاء أكبر من مواطنيه. لقد كانت الفتاة البريطانية مفتونة بالشريف. ومرد إعجابها بهذا الرجل، الذي يمثل الإسلام الصوفي، هو أنه كان مغرما بالحضارة الأوربية.

في الواقع، ميولات الحاج عبد السلام الأوربية قديمة جدا. فمنذ الصغر أبان عن استقلال تام وتجاهل لوضعه الخاص كمرشح لخلافة والده على رأس الزاوية. حرية تصرفاته وسلوكاته كانت أبعد ما تكون عن الانضباط، إلى حد أن والده مولاي العربي كان ينتقده بشدة. عندما آلت مشيخة الزاوية الوزانية إليه، كثيرا ما غادر ''دار الضمانة'' ليقضي فترات طويلة في طنجة، قبل أن يستقر بشكل نهائي في هذه المدينة، الأكثر قربا من النموذج الأوربي.

كان كبير شرفاء وزان ليبراليا إلى أبعد الحدود: لم يمنع زوجته من الخروج إلى الشارع، وكان يذهب معها إلى الكنيسة ويظل منتظرا حتى انتهائها من صلاتها، كما لم يمنعها من الأطعمة



المحرمة في الإسلام. كان معجبا بالموسيقى ويحمل معه دائما آلة كمان. إميلي تقول إن "له صوتا جميلا، بإمكانه أن يكون ثروة لو سهر على تهذيبه".

كان عاشقا للحفلات والسهرات، حتى لقاءه بإميلي كان في إحداها. خلال زواجهما، اعتاد الحاج عبد السلام أن يصطحب معه زوجته إلى البرية في رحلات لصيد الأرانب والخنزير البري. وفي إحدى المرات أخذها إلى سبتة لمشاهدة مباراة في مصارعة الثيران، وهي التجربة التي لم تستسغها. بخصوص أولادهما، لم يمانع شريف وزان مطلقا أن تسهر إميلي على تربيتهم على الطريقة الأوربية، وعندما وصلا إلى مرحلة الشباب أرسلهما إلى إحدى الثانويات بالجزائر.

رغم هذا التناقض الذي يبدو بين سلوك الشريف وموقعه كشيخ للزاوية، إلا أنه حافظ على حظوته وهيبته لدى مريديه. إميلي تصف في كل مرة الحشود الهائلة التي تلاقي الشريف في طريقه، طمعا في "البركة": "كم هي رائعة هذه المشاهد التي كنت شاهدة عليها: رجال ذو بنيات ضخمة يبكون، بخدود مبللة بالدموع، جاؤوا بحثا عن بركات الشريف... أشخاص يحملون مناديلا، وآخرون ملابس في أيديهم. من أجل ماذا؟.. يجب أن يلمس الشريف هذه الملابس حتى تنتقل البركة إلى أصحابها الذين لم يستطيعوا القدوم. الطحين الذي يباركه الشريف يمزج مع الحساء ليقدم للمريض. الدقيق يخلط مع حبات القمح طمعا في حصاد جيد في المواسم المقبلة".

في كثير من صفحات كتابها، تسجل إميلي أن أغلب الطامعين في بركات الشريف هم من المرضى. هذا الشريف نفسه وقف عاجزا عندما سقط أحد أطفاله مريضا، بسبب بيضة أهداها له أحد المريدين. "ظننت أن الشريف سيصبح أحمقا، كان يبكي مثل أم من أجل ابنها"، تعلق إميلي واصفة حاله.

دفاعا عن الشريف

في فقرات كثيرة منه، يبدو كتاب إميلي كين مرافعة عن الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني الذي تسببت ميولاته وارتباطاته الأوربية في توتر علاقته مع السلطان المولى الحسن. هذه الارتباطات توجت سنة 1884 بحصوله على الحماية الفرنسية، في سياق اتسم بتزايد حدة الأطماع الأجنبية في المغرب. في بداية حياته على رأس الزاوية خلفا لوالده مولاي العربي، كان شريف وزان ما يزال مرتبطا بالبلاط، إلا أنه سرعان ما صار يبتعد عنه شيئا فشيئا، خوفا من أن يصبح في النهاية سجينا لدى مولاي الحسن الذي لم يكن يستسيغ ميولاته الأوربية.

وقد تعقد الموقف أكثر بحلول سنة 1860، أي بعد حرب تطوان، عندما أقدم الشريف – حسب إميلي- على تأسيس وحدات مسلحة خاصة به، بل إن فكرة الحكم خطرت بباله في وقت لاحق، قبل

أن يتراجع عنها. وهذا ما تؤكده زوجته بالقول: "فيما بعد، وبسبب إصغائه إلى بعض الاقتراحات الأوربية، استميل الشريف إلى أن تتولد لديه فكرة الحصول على السلطة، لكن بعد تفكير عميق، تخلى عن هذا المشروع الوهمي".

في النهاية، وبسبب سوء العلاقة مع السلطان، اعتبر الحاج عبد السلام أن أمنه بات مهددا، فلجأ إلى طلب الحماية القنصلية الفرنسية، وهو الطلب الذي تمت الاستجابة عليه .أصبح شريف وزان محميا فرنسيا بشكل رسمي ابتداء من سنة 1884، اعترافا بالدور الذي لعبه سنة 1876 في التدخل لدى قبيلة أولاد سيدي الشيخ في الجزائر وحمل سيدي سليمان بن قدور – كان من مريدي الزاوية الطبيبة الخاضعة روحيا لزاوية وزان- على وضع السلاح والانتقال للعيش في المغرب .لم تنجح المحاولات المتكررة لرأب الصدع بين سلطان المغرب والحاج عبد السلام، ليقضي الرجل أيامه الأخيرة وهوس الاغتيال يسيطر على خياله .بعد وفاته، أخذت إميلي على عاتقها مهمة إصلاح الأمور، فحملت ابنيها مولاي علي ومولاي أحمد إلى فاس للقاء السلطان المولى الحسن .تقول السيدة الإنجليزية التي صار عمرها حينها 43 عاما: "بعد تبادل التحايا المعتادة، وتقديم التعازي المتبادلة (في وفاة شريف وزان)، أبلغهما مولاي الحسن أنه حزين لوفاة والدهما وأنه سيكون لهما أبا، وسيتعهد برعاية أمهما .ثم بعد أن سألهما عن اللغات التي يتكلمانها، طلبا منهما أن يتحدثا قليلا من الإنجليزية أمامه .أخشى أن لا يكون هذا الاختبار نهائيا، لأن الولدين كانا خجولين جدا لكي يتحدثا بطلاقة".

بعد سنوات من وفاة زوجها عادت إميلي كين إلى بريطانيا لأول مرة بعد 25 سنة قضتها كاملة بالمغرب، ولم تجد أمامها إلا إحساسا بالغربة في بلدها الأم. تقول إميلي: "بدا أن كل شيء تغير عند وصولي: الأشخاص مختلفون، طريقة حديثهم بدت لي غريبة. كان الكل يسارع في كل الجهات، متعطشا إلى الحياة المادية. الزحام الشديد ضايقني...خلال هذه الأيام التي قضيتها هناك أحسست أنني غريبة في بلد غريب". في آخر فقرة في كتابها، كتبت شريفة وزان: "لا أنصح أحدا أن يتبع الطريق التي سلكتها. في المقابل، أنا غير نادمة على أي شيء، وأتمنى أن يكون للأربعين سنة التي قضيتها بين المغاربة أثر جيد على المستقبل". توفيت إميلي كين في طنجة سنة 1943.

المصدر: http://zamane.ma/ar



صفحات من التاريخ القديم





ملامح من تاريخ بلاد الأمازيغ



محمد حماس
دكتوراه شعبة التاريخ
جامعة ابن طفيل. كلية
الآداب. القنيطرة.المغرب

تقديم:

لم تكن خلال العصور البائدة حدود، ولا أقاليم قائمة الذات، كما هو الحال الآن. كل أرض كانت تأخذ اسم سكانها، سواء كانت البنية الاجتماعية فيها قبلية، أو عشائرية، أو عائلية. تغير ويغار عليها، تعيش الترحال والانتقال، ربما كان الجنس البشري آن ذاك مولعا باكتشاف نقط كوكب الأرض، فتزيد مساحة هذه البلاد أو تتقلص حسب توسع أهلها، الحروب مستمرة والاقتتال من أجل البقاء والتملك دائم فيتوسع أقوام على حساب آخرين، وتنقرض حضارات لتحل محلها أخرى .. سال مداد كثير ولايزال، عن تواجد الجنس البشري وتطوره ككائن يسعى بشكل دائم للمعرفة واكتشاف الآفاق البعيدة، لكن لا أحد يمكنه الجزم بامتلاك الحقيقة، حقيقة الصراع القائم منذ الأزل هو ذاته الصراع من أجل السلطة، قد تختلف مظاهره ويبقى عمقه واحدا لا يتغير ولا يتبدل.

سوف نكتفي، في هذه الورقة، بالمرور في عجالة على بعض من تاريخ نقطة من هذا الكوكب، المسماة بلاد الأمازيغ، ولو أن أسماء هذه البلاد تعددت وتكررت.

ترى ما الذي أعطى لهذه الأرض كل تلك الأهمية؟ لماذا ظلت محط جدل وتضارب في التأريخ لها؟ هل الأمر يتعلق بكل ذلك العدد الكبير من الحضارات التي تعاقبت عليها؟ أم الأمر يهم سكانها الأصليين؟ أم هما معا؟ لماذا وقع التهافت نحو امتلاك هذه البقعة المعروفة ببلاد الأمازيغ؟ هل الأمر يتعلق بخيراتها؟ لماذا مرت دول وشعوب بها دون أن تعرف الاستقرار حتى جاء العرب؟

إن المقصود ببلاد الأمازيغ، أو الأمازيغ، هي تلك الأراضي الممتدة من سيوه غرب صحراء مصر، شرقا، إلى جزر الكناري حيث عاش الغوانش الأمازيغ، غربا، ومن البحر الأبيض المتوسط، شمالا، إلى مالي وبوركينا، جنوبا.

سوف نركز على بعض من ملامح بعض الممالك الأمازيغية الإسلامية، التي حكمت هذه المنطقة المسماة بلاد الأمازيغ (الأمازيغ)، أو شمال إفريقيا، أو الغرب الإسلامي، والأمر يهم دولا عظمى هي: المرابطون والموحدون والمرينيون والوطاسيون ثم قبل كل هؤلاء مملكة أخرى لم يصلنا عنها إلا القليل رغم كونها عمرت حوالي ثلاثة قرون هي دولة بني صالح بتامسنا، ثم إمارة نكور وإمارات أخرى أسسا بنو يفرن، هذا في أفق إثارة الاهتمام لمدى عناية هذه الدول بالمجالين، الديني والروحي.

معلوم أن إسم "لوبي" شاع لدا اليونان، و"إفري" من مبتكرات الفينيقيين، و"بربر" أطلقها عليهم الرومان الذين سموا كل من خرج عن طاعتهم "بربر" بنية التحقير والاستخفاف، ثم عبارات أخرى من قبيل "باربايسي" و"باربارجيا" وفي مصر مدينة تسمى"باربايا". وسميت الشعوب الجرمانية "باربار" بمعنى الهمج والمتوحشين. أما تسمية أمازيغ، فيبدو أنها قديمة،(كما ورد عند ابن سعيد الدرجيني، صاحب طبقات مشائخ المغرب)(1).

لقد اتخذت هذه البلاد أسماء عدة، هكذا عرفت أفريقيا الشمالية ببلاد الأمازيغ، وأطلق عليها الإغريق اسم ليبيا، وسماها الرومان أفريقية (تونس الحالية) وهو الإسم الذي اتخذته سائر القارة وأطلق عليها العرب اسم بلاد المغرب، مقابل بلادهم بالمشرق، أي بمفهوم جغرافي(2).

الأمازيغ قبل الفتح الإسلامي:

لا نعرف عن تاريخ الأمازيغ إلا القليل فتواجدهم بالشمال الأفريقي قد يتجاوز 5 آلاف سنة ولو أن اسمهم ليس قديما بكل هذا القدر.

أما عن أصولهم، فهناك اختلاف كبير بين الدارسين، وهو اختلاف راجع لكون جل الباحثين أو النسابة، ينطلقون من فرضية أن أمة الأمازيغ جاءت من مكان ما، لهذا وجب التساؤل، لماذا الإصرار على كون الأمازيغ جاؤوا من مكان ما؟ من الجرمان أو اليمن؟ ألا يمكن التسليم بأن هذا الشعب تواجد بهذه البلاد واستقر بها وأخذت اسمه؟

لقد ذهب عدد من المؤرخين إلى الربط بين القوم الشقر من الأمازيغ والأجناس الأروبية القديمة، مثل الأيبيريين (Iberians) والكلت (Celts)(3).

الأمازيغ هم أول سكان المغرب القديم، سكنوا جباله وتلاله وأريافه وضواحيه وأمصاره(4)، سكنوا بيوتا بناؤها من طين وحجارة وشجر، فكانوا يدعمون الخيام بأوراق الأشجار والشعر والوبر، أما أهل العز منهم فيظعنون لانتجاع المراعي لا يجاوزون الريف إلى الصحراء، يكسبون من الماشية البقر والخيل والشاء(5).

ويرى القلقشندي أنهم عرب، يرجعون في نسبهم إلى قبيلتي لخم وجذام العربيتين من فلسطين والشام، كانوا هناك إلى أن تم إخراجهم من طرف بعض ملوك فارس إلى أن استقروا بمصر ثم زحفوا نحو المغرب إلى أن جاء أفريقش(6) .. إلى آخر الرواية التي تزعم نسبهم العربي.

شجب عبد الرحمن ابن خلدون كل هذه الادعاءات، باعتبار أن الكنعانيين ليسوا عربا، وليسوا من أبناء سام، ثم إن العرق الأمازيغي سابق في الوجود، فهم ليسوا من ولد إبراهيم لأنهم عاشوا في زمن داوود الذي قتل جالوت، ومعلوم أن داوود كان بينه وبين إسحاق بن إبراهيم أخو نعشان، عشرة آباء فقط، فلا يمكن أن يتناسلوا بهذه الكثرة، أما القول أنهم من بلاد الشام وكونهم من جالوت أو العماليق، فذاك ضرب من الخرافة(7)، لأنه لا يمكن لشعب بكل ما عرف عنه من حضارة وحكم وقوة، أن يكون تابعا أو منحدرا من منبت غير الأرض التي احتضنت كل تاريخه.

لقد ظلت بلاد الأمازيغ هدفا لشعوب خلت كان أولها الفينيقيون، ثم القرطاجيون، ومن بعدهم الرومان، الذين استغلوا خيرات البلاد واستعبدوا أهلها. لقد بدأت المعاناة الحقيقية للبربر بعد سقوط قرطاج ووقوع الملك يوغورطة في الأسر لدا الرومان، هؤلاء قاموا بإحراق المدن في مصر

وأحرقوا خزانة الإسكندر التي حوت كنزا عظيما من تاريخ الأمازيغ وحضارتهم بما في ذلك كتابتهم، لهذا تراجع الأمازيغ نحو الجبال، أما الوندال فلم يكونوا أقل تسلطا ممن سبقهم.

جاء الفينيقيون من ليبيا الحالية، فأسسوا سنة 1100ق.م على الضفة الأطلسية مدينة لوكوس(8)، التي أضحت من أهم المراكز التجارية والحضرية، وقد تعاقبت عليها العديد من الحضارات القديمة، منذ ما قبل الميلاد إلى غاية المرحلة الإسلامية فكانت لها أدوار طلائعية في تاريخ التراث الإنساني عموما والمتوسطي تحديدا. هكذا دخل الأمازيغ في علاقات تجارية مع الوندال، ثم من بعدهم القرطاجيين الذين أسسوا عدة مراكز تجارية على الساحل المتوسطي ليستمر نشاطهم التجاري قرونا عدة مع الأمازيغ فجلبوا الذهب وزراعة الكروم والعديد من التقنيات الزراعية إضافة إلى الطقوس الدينية التي عمد الأمازيغ إلى ممارسة البعض منها.

تولى مسينيسا، أول ملوك الأمازيغ، الحكم في القرن 3 ق. م(9)، وامتدت مملكته من مدينة قسنطينة إلى الحدود التونسية الحالية، فأسس مملكة نوميديا بدعم من الرومان، مقابل تعاونه معهم ضد القرطاجيين وكانت عاصمتها "سيرتا"(قسنطينة حاليا)(10) ، امتدت من غرب تونس حاليا وضمت المغرب الأوسط وجزءا من المغرب الأقصى، سكنها المازيليون جهة الغرب، حلفاء الرومان، ثم المسايسوليون في الجهة الشرقية، حلفاء القرطاجيين. المازيليون يحكمهم ماسينيسا، أما المسايسوليون فيحكمهم سيفاكس ...

ويعتبر ماسينيسا أول وأعظم ملك بربري عرفه التاريخ بفضل ما حققه من ازدهار وانتصارات كان أولها توحيد مملكة نوميديا بعد انتصاره على سيفاكس، ثم الهزيمة التي ألحقها بحنبعل كبير قادة القرطاجيين سنة 202 ق.م. ثم خلفه فيما بعد ملك قوي هو حفيده يوغورطة الذي كان عدوا للرومان، فاعتقلوه وألقوا به في السجن ليموت مشنوقا داخل زنزانته، وعند سقوط قرطاج العام 146 ق.م بسط الرومان نفوذهم على كافة تراب المغرب(11).

خلال الحكم الروماني نشطت الحياة التجارية والزراعية والمنشآت، حيث تم تشييد الطرقات والمدن(وليلي).

بعد سقوط حكم يوغورطة سلم الرومان جزءا من نوميديا للبربر باعتبار أنهم أزاحوا عدوا لهم من الحكم، وبالتالي لابد من التعايش مع الأمازيغ وضمان الاستقرار بمنطقة نفوذهم.

ومن الملوك الأمازيغ المحسوبين على الصف الروماني، نذكر كذلك، جوبا الثاني الذي أسس موريتانيا ما بين سنتي 25 إلى 23 ق.م وعرف عنه أنه كان عالما ومولعا بجمع التحف والآثار.

ثم جاء من بعده الإمبراطور أغسطين زوج كيلوباترا سيلين ابنة كيلوباترا الكبيرة، جعل من عاصمته شيرشل مدينة للفنانين اليونان.

قام الإمبراطور كلود الأول، حوالي سنة 42 ق.م، بضم موريتانيا إلى بلاد الرومان، وقد كانت موريتانيا منقسمة إلى إقليمين :

- موريتانيا الطنجية (المغرب حاليا). على رأسها بطوليمي ابن جوبا
- موريتانيا القيصرية (الجزائر حاليا)

أما في الغرب فتقوم مملكة نوميديا (قسنطينة). وإفريقية (تونس حاليا)

لقد كانت بلاد الأمازيغ وعرة بسبب الجبال، لهذا لم يكن بوسع الرومان مراقبة كافة تراب المستعمرات عدا فوليبيليس(وليلي) فتراجعوا نحو جهة طنجة العام 285م والتي كانت تحت نفوذ الملك ديوكليتين بإسبانيا.

هزم الوندال الرومان سنة 435م واستولوا على كل المنطقة المتوسطية (شمال المغرب والجزائر حاليا)، فسيطروا على قرطاج واتخذوها عاصمة لملكهم، حكموا غرب البحر الأبيض المتوسط والجزر المتاخمة لإسبانيا ومع ذلك لم يستطيعوا إخضاع الرومان وبربر إفريقيا إلى أن كانت سنة 533م حيث قام الإمبراطور البيزنطي جوستين الأول بإرسال أحد قواد جيشه، الجنرال بيليساير لردع الأمازيغ، فأخضعهم تحت النفوذ البيزنطي سنة 534م، ومع ذلك استمرت العديد من بؤر التوتر والمقاومة الأمازيغية بالجبال رغم هزيمة الوندال(12).

العرب المسلمون:

كان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب(13)، على عهد الخليفة عمر بن الخطاب دون أن يصل إلى أفريقية، فتح برقة وطرابلس، ثم جاء الخليفة عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وأمره بفتح أفريقية سنة 26هـ.(14) ، فهزم المسلمون جيوش الروم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقتل بن الزبير جرجير واستمر زحف المسلمين فوقع بينهم وبين الروم و الأمازيغ قتل وسبي، وقد أسروا عددا من ملوك الأمازيغ، دام مقامهم آنئذ بأفريقية عاما وثلاثة أشهر ليقوم هرقل بإرسال من سيهزم الأمازيغ عقابا لهم على توافقهم مع المسلمين(15)، بعد هذا تولى معاوية بن حديج أمر المغرب فهزم الرومان، وتولى بعده عقبة بن نافع الفهري وأبو المهاجر دينار الذي فتح المغرب الأوسط(16).

بلغ العرب المسلمون شواطئ المحيط الأطلسي سنة681م فلاقوا مقاومة عنيفة من طرف الأمازيغ حيث اتحدت القبائل الأمازيغية مشكلة فيدرالية قبائل مصمودة بالأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير والريف والسهول الأطلسية ثم قبائل صنهاجة بالأطلس المتوسط وزناتة بشرق المغرب، ولم تكن المقاومة الأمازيغية للعرب وحدهم، بل ضد كل من سبقهم من الأقوام: فنيقيون ورومان وقرطاجيون وبيزنطيون ووندال، هذه المقاومة تزعمها بداية الأمر الملك كسيلة، فانتهت بمقتل عقبة بن نافع الفهري وأبي المهاجر، ثم زهير بن قيس فيما بعد على يد الروم، ومعهم قوم كثير. ثم جاءت الملكة ديهيا، زعيمة جراوة عام 695م، لتتولى أمر الأمازيغ بحكمة كبيرة، وشجاعة عالية، تنم عن مراس وإستراتيجية حربية قل نظيرها، ولم تنهزم إلا خلال الحملة الثانية على أفريقية، على يد القائد حسان بن النعمان(17)..

اعتنق الأمازيغ الإسلام على نطاق واسع خلال القرن 8م، وأضحوا جيشا قويا ينشر العقيدة الجديدة، فتقوت شوكة المسلمين بالتحام الأمازيغ في صفوف الجيوش العربية لما عرف عن الأمازيغ من شجاعة وبسالة ورباطة جأش وثبات، فوجدوا في الدين الجديد ما يؤلف بينهم ويمحي العديد من المعتقدات الوثنية، ولو أن العديد من تلك المعتقدات استمرت إلى الزمن الراهن، وأيضا ما يجعلهم يتخلصون من تكالب أمم أخرى على بلادهم، فكان لموسى بن نصير كبير الأثر في ذلك(18)، فزحفوا نحو الأندلس وعلى رأسهم القائد الأمازيغي المسلم طارق بن زياد سنة 711م(19)، فحققوا من الانتصارات هناك ما جعل الإسلام يستمر لقرون لولا عبث ملوك الطوائف وانغماسهم في اللهو وتشرذمهم فبنوا مجدا لا تزال آثاره بادية نبكيها فردوسا مفقودا.

من الأمازيغ من تصنع النسب العربي واستند إلى النسب النبوي، مثل الحفصيين والزيانيين ـ العبدواديين والمرينيين... ثم تصاهروا مع العرب، كل هذا حتى يتساووا معهم، ولا يزال الجدل قائما إلى الآن حول من كتب الخطبة الشهير المنسوبة إلى طارق بن زياد؟ هل هو كاتبها أو كتبها قلم صاحبه عربي!!!! أولم يتعزز الإسلام بانضمام العجم إليه؟ فما مشروعية هذا السؤال؟ أليست الأحقاد ضد انتصارات طارق بن زياد هي المحرك لمثل هذه الظنون؟

أضحت بلاد الأمازيغ بعد الفتح الإسلامي تضم ثلاثة ممالك، هناك مملكة إفريقية، وهي المغرب الأدنى، قاعدتها في صدر الإسلام مدينة القيروان، ثم المغرب الأوسط، قاعدته تلمسان وجزائر بني مزغنة، ثم تأتي مملكة المغرب الأقصى لتشمل خمس عمالات: فاس ومراكش والسوس ودرعة وتافيلالت، تقوم دار الملك فيه بين فاس ومراكش، غالبية ساكنته من المصامدة وبعض من صنهاجة(20).

هكذا، ومنذ بداية الفتح الإسلامي لإفريقيا الشمالية، بلاد الأمازيغ، تعاقب على ولاية هذه الأرض كل من عبيد الله بن سعد بن أبي سرح الذي فتح أفريقية(21)، ومعاوية بن حديج، وعقبة بن نافع الفهري، باني مدينة القيروان(22)، وأبو المهاجر دينار، فاتح المغرب الأوسط(23)، ثم الولاية الثانية لعقبة بن نافع الفهري، فاتح المغرب الأقصى، ومقتله على يد الأمازيغ(24)، وزهير بن قيس البلوي قاتل كسيلة، وحسان بن النعمان(25)، وموسى بن نصير(26)، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، ويزيد بن أبي مسلم(27)، وبشر بن أبي صفوان، وعبيدة بن عبد الرحمن(28)، وعبد الله بن الحبحاب(29)، هذا الأخير كان من القيسية فاضطهد اليمنية، وعامل الأمازيغ كونهم فيء من المسلمين وأراد أن يخمسهم، وقد ولى ابنه إسماعيل على السوس الأقصى، فاستبد ب الأمازيغ، وكثر عبثه بنسائهم. كان ابن الحبحاب ينتزع المال والنساء من الأمازيغ ويرسلها للخليفة هشام بن عبد الملك فعهد لحبيب بن أبي عبيدة بشن حملة شملت سائر تراب الأمازيغ لجمع المزيد من المال والسبايا، ناهيك عن إرسال الأمازيغ للقيام بالحملات ضد الجيوش الأجنبية(30). وكلثوم بن عياض الذي قتل هو الآخر(31)، وحنظلة بن صفوان(32). ومن بعدهم آخرون إلى حين تأسيس دولة الأدارسة ... هكذا تحول مسار الفتح الإسلامي لبلاد الأمازيغ إلى غزو عربي للنهب واستباحة الأرض والعرض تحت غطاء نشر العقيدة الإسلامية وهو المر الذي دعا الأمازيغ للدفاع عن أرضهم وعرضهم وهويتهم وثقافتهم وقد اعتنقوا الإسلام وعملوا على نشره ...

الأثر الخارجي على الأمازيغ

لقد شكل الخوارج خطرا دائما بالمشرق والمغرب، فقد ساهموا في إسقاط الدولة الأموية واقلقوا خلفاء الدولة العباسية بالمغرب خلال العصر الأول، حيث استمالوا الأمازيغ إلى مبادئهم، من إباضية وصفرية، فخلعوا أبا جعفر المنصور واستولوا على القيروان، ورغم ضعف شوكة الخوارج بالمشرق استمر نفوذهم بالمغرب بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي هدد الوجود الفاطمي، وقد انتشرت جيوشه في سائر بلاد الفاطميين العام 333هـ إلى أن هزمهم الخليفة المنصور ومات أبو يزيد سنة 336هـ متأثرا بجراحه بعد وقوعه في الأسر(33). لقد أثروا في المشهد السياسي بالشمال الإفريقي إلى نهاية القرن الرابع الهجري(34)، فعرفت بلاد المغرب في عهدهم أيما ازدهار على مختلف المستويات، الاقتصادية والاجتماعية، بل كان التواجد الخارجي ثورة حقيقية ضد السلطتين، الأموية والعباسية، وبالتالي رفعوا راية الاستقلال عن المشرق، فاتسعت رقعة المذهب الخارجي الأمازيغي لتشمل قسطيلية، وقفصة، ونفطة، ووالحامة، وبشار،

وجبل نفوسة، وجربة، وأقصى جنوب المغرب الأوسط، حسب ابن حوقل، وجميعهم من الخوارج الإباضية، والوهبية، وقد لعب الإباضيون دورا بارزا في نشر الإسلام ببلاد السودان قبل بني زيري(35)، ورغم أنه لم يكتب لثورتهم النجاح والاستمرار إلا أن الأثر بقي ولا يزال باديا على شعوب منطقة الغرب الإسلامي باعتبار أن الفكر لا يمكن دحضه أو اختزاله، فهو يستمر وتتوارثه الشعوب جيلا بعد جيل، لا يهم عدد من اعتقد به أو حمله، المهم أنه يستمر على مستوى السلوك والممارسة اليومية ليصبح جزءا من ثقافة من اعتنقه كما هو الحال بالنسبة للفكر الخارجي الذي هو مستمر في مجتمعات الغرب الإسلامي عن وعي بذلك أو غير وعي، فالأمر يدخل في سياق حضاري عام، والحضارة هي كل هذا، شيء من هذا وذاك، ثم إنه لا يمكن استغراب ازدهار المذهب الخارجي بهذا الشكل مادامت نفوس الأمازيغ ظلت مؤهلة بطبيعتها لاعتناقه، وقد توج هذا التواجد بقيام دولتي بني مدرار بسجلماسة والرستمية في تيهرت.

لقد استمرت ثورات الأمازيغ بكل عنف وقوة، كانت تحكمها غريزة البقاء وطبع التمرد وروح الاستقلال. انفردت العديد من القبائل الأمازيغية بزعامة هذه الثورات واستطاعت الوصول إلى سدة الحكم، ومنها مطغرة بزعامة القائد ميسرة، ثم قبيلة بني يفرن التي أقامت دولا في المغربين، الأوسط والأقصى، والأندلس زمن الطوائف، هي: إمارة أبي قرة اليفرني، وهي إمارة بدوية قامت في شكل حلف قبلي، ثم إمارة يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بافكان، وإمارة بني يعلى بن محمد اليفرني بسلا في المغرب الأقصى، وإمارة أبي نور ابن أبي قرة اليفرني برندة بإقليم تاكرنًا بالأندلس، ثم التكتل القبلي الذي ترأسه أبو يزيد والمتكون من بعض الأحلاف القبلية الزناتية(36).

ثورة ميسرة:

ظل الأثر الخارجي قائما بين صفوف الأمازيغ مما أدى إلى اندلاع ثورة جديدة سنة 122هـ هي ثورة ميسرة(37)، هذه الثورة كانت لحظة تحول في تاريخ منطقة الغرب الإسلامي بالنظر إلى دوافعها، لقد كان سببها الاعتداءات والتجاوزات التي أقدم عليها القواد العرب، من استباحة لمال وعرض الأمازيغ وخروجهم عن مسار نشر العقيدة مما جعل مشايخ القبائل الأمازيغية تشكل وفدا يرأسه ميسرة، شيخ قبيلة مضغرة، يتوجه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان فلم يجدوا الآذان الصاغية لمعاناتهم لأن الخليفة ذاته كان وراء تلك الاعتداءات مادام هو من يعين الولاة ويأمر بشن الغارات العسكرية على بلاد الأمازيغ ...، فأعلن ميسرة نفسه خليفة فالتفت القبائل الأمازيغية حوله، ومنهم مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف، ثم انضمت إليه زناتة المغرب الأوسط(38)، فانتشرت الثورة في سائر بلاد المغرب انتشار النار في الهشيم.

ينتمي ميسرة المطغري للمذهب الخارجي، على الطريقة الصفرية. وهو المذهب الذي انتهجته مطغرة، ومكناسة، وزناتة، وبرغواطة إلى السودان(39). لقد تعرض ميسرة للتشهير، فتم وصفه بالحقير، والسقاء، والفقير(40)، وغيرها من النعوت التي تحط من شأنه. إلا أن المؤكد هو أن ميسرة كان زعيم قبيلته. فهو "رئيس مطغرة"(41)، و"مقدم الصفرية"(42).

سلالات أمازيغية حاكمة:إمارة نكور

إنه لمن الأهمية بمكان التذكير بمملكة عظيمة نشأت بالريف المغربي هي إمارة نكور التي ظهرت مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجريين، 125هـ/743م، وقد استمرت في الوجود حوالي ثلاثة قرون، إذ تعتبر أول دولة سابقة في الميلاد قبل أية دولة أخرى بالمغرب الأقصى(43). وقد كانت على المذهب السني من الخوارج.

عندما دخل صالح بن منصور بلاد المغرب أول الفتح الإسلامي، كان قد أسلم على يده عدد من قبائل الأمازيغ، منهم صنهاجة وغمارة، وقد نزل ببلاد تمسمان وبها مات بعد أن حكم أهلها قبل أن يرتدوا عليه ليعودوا إليه ثانية... وتولى من أبنائه المعتصم وإدريس وسعيد.

سعيد هو الذي بنى مدينة نكور(44)، فحكم قومه 37 سنة وخلفه إبنه صالح. ومن أشهر أبنائه، عبد الرحمن الذي كان فقيها عالما ورعا أدى فريضة الحج أربع مرات وعبر نحو الأندلس للجهاد فقضى على الثائر ابن حفصون ومن معه وبسط يده على مورسية وشارك في غزوة أبي العباس القائد فاستشهد بها(45).

ثم اقتطع الوليد بن عبد الملك الأموي إمارة نكور لصالح بن منصور الحميري، من عرب اليمن سنة 91هـ (46)، ومن أهم مدنها مليلة وتمسمان ولمزمة وضمت أيضا حوض كرط.

كانت آخر أيام سعيد بن صالح، ملك نكور، حين شن عبيد الله الشيعي حملة على نكور بقيادة مصالة قائد تيهرت... فكانت هزيمته، ومنها انتقل إلى مالقة حيث استقر هناك مع ثلة ممن فروا بصحبته فتربصوا بعدوهم بعد ستة أشهر ليعاودوا الكرة فيستعيدوا الإمارة ويلتف الأمازيغ من حول صالح... وفي سنة 308هـ عاد مصالة بن حبوس الفاطمي في إطار الصراع الفاطمي الأموي من جديد على رأس جيوشه ليهزم صالحا ويحتل نكور، أما صالح فتحصن بجبل أبي الحسين(47) ثم انجلى عنها إلى أن صارت سنة 318هـ حيث زحف ابن أبي العافية نحو نكور، وقتل أميرها المؤيد بن عبد البديع بن إدريس بن صالح بن منصور وخرب أسوارها وقتل من فيها فغنم واستباح الأعراض(48).

أما الزعيم المرابطي يوسف بن تاشفين فقد غزا الريف برمته سنة 473هـ ففتح أ□رسيف ومليلة وخرب نكور(49)...

دولة برغواطة بتامسنا

تسمى تامسنا أو السوس الأدنى، يحدها جهة الشمال نهر أبي رقراق وجنوبا نهر أم الربيع وغربا المحيط الأطلسي وشرقا جبال الأطلس، يصف الحسن الوازان تامسنا كونه إقليما تابعا للملكة فاس وتسكنه قبائل الأمازيغ، كان فيه نحو 40 مدينة و300 قصر ثاروا ضد ملك فاس عام 323هـ فاحتفظوا بتامسنا بعد التفاوض مع ملك فاس(50)، أسسها طريف بن مالك أحد قواد موسى بن نصير، شارك في فتح المغرب الأقصى والأندلس. وطريف هذا كان من أتباع ميسرة على مذهب الصفرية، على خلاف جمهور بني يفرن ومغراوة وزناتة عامة الذين كانوا من أهل الجماعة والسنة(51)، ولما انقضى أمر ميسرة بقي قائما بأمر تامسنا، ويقال أنه ادعى النبوءة وشرع لقومه الشرائع، ثم خلفه إبنه صالح الذي شهد حروب ميسرة بجانبه، وقد كان ذا علم، ادعى النبوءة هو أيضا فتشبه بالنبي محمد عليه السلام وادعى أنه المهدي وما إلى ذلك، ثم خلفه إبنه إلياس الذي لم يسر على نهج أبيه فحكم قومه حوالي خمسين سنة، ثم خلفه بعد وفاته ابنه يونس الذي أظهر كفره وأحرق مدن عدة فقتله مخالفوه بعد سبعة وأربعين سنة من الحكم، بعد أن أدى مناسك الحج. ثم خلفه أبو غفير محمد الذي استولى على ملك برغواطة وفتك بالأمازيغ، وقد هلك أواخر ق3هـ فورثه ابنه أبو الأنصار عبد الله الذي كان مهابا وفيا للعهد والجار، توفي سنة 441هـ(52).

قامت إمارة بني صالح بتامسنا، وهي بلاد المصامدة، كما وصفها بذلك ابن عذاري، ومن أهم قبائلها بورغواطة وزناتة وصنهاجة وهوارة ومطماطة، كان لها موقع حساس بين فاس عاصمة الأدارسة شمالا ومراكش عاصمة المرابطين جنوبا والرباط مدينة الموحدين هي أيضا في الجزء الشمالي من تامسنا(53). توارث الحكم ملوك كثر من ذرية صالح إلى أن هاجمهم الصنهاجيون وقتلوا ملكهم سنة 368هـ/978م، وفي عهد المرابطين قتل آخر ملوكهم، أبو حفص عبد الله حوالي سنة 455هـ/1063م(54)، كان لهذه الدولة دور تاريخي وسياسي واقتصادي كبير باعتبار موقعها الجغرافي، فجرى هذا الأثر على تاريخ المغرب الأقصى، لكن وللأسف الشديد لم تحظ بالاهتمام الذي يليق بها عدا ما تعرض له بعض الجغرافيون أمثال ابن حوقل والبكري رغم كونهما عاصرا فترة من عهد هذه الدولة إذ لم يتجاوز ما كتباه عنها بضع صفحات(55)، أما الإسلام فقد عرف طريقه إلى هذه القبائل مبكرا، في البداية مع عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/681هـ، والذي لم يعمر هناك طويلا ليرتد نحو القيروان، فقتل على يد كسيلة قرب وادي

الأبيوض، ومعلوم أن عقبة أخذ كسيلة وامتهنه وأذله وهو الأمير في قومه فكان رد فعل كسيلة أن واجهه في معركة وقتله ومن معه(56) ... ثم جاء بعده موسى بن نصير، في عهد الوليد بن عبد الملك الذي أخضعهم، فدانت له قبائل السوس الأدنى (تامسنا حسب تقسيم ابن خرداذبة في المسالك والممالك)ونشر الإسلام بينهم وقد ولى عليهم كما على طنجة، القائد طارق بن زياد(57).

هاجم موسى بن نصير سكان تامسنا بواسطة جيش قوي أثار في نفوسهم الهلع ففضلوا الانسحاب تاركين مدينتهم وعبروا نهر أبي رقراق في اتجاه فاس لكن ملكها استغل الموقف وتصدى لهم وقضى عليهم، أما الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين فقد تفردت بتامسنا طيلة ثمانية أشهر حيث حولتها إلى دمار وحمام دم لم ينج منه حتى الأطفال(58)، ثم زحف يعلى بن أبي الفتوح الأزداجي سنة 406هـ على مملكة تامسنا في آخر أيامها، وهو أمير أزداجة المتغلبين بوهران، فخربها وقضى على بني صالح وأقام الأزداجيون هناك إلى سنة 460هـ(59).

رغم كل ما تقدم، يبدو تاريخ هذه الإمارة قويا من حيث الوقائع والحراك الذي أججه بمنطقة المغرب الأقصى. إذ لا يمكن أن تستمر دولة في الوجود كل هذا الزمن دون أن تكون هناك ثوابت حضارية وثقافية تشدها لأرضها ولمحيطها، ثم ما كانت لتستميل الدول لغزوها لو لم تكن محل إغراء، فتوالت الضربات عليها لاستأصالها، فتم ذلك بذريعة الشرك والكفر وذاك أمر والله في حاجة لتمحيص، ألم يتم التعامل مع ادعاء النبوءة عند طريف بكثير من المبالغة؟ لماذا لم تتم معالجة أمر كهذا بسبل أخرى؟ لماذا التقتيل والإبادة؟ كل هذه أسئلة تحتاج لبحث يتوخى الموضوعية والنبش في تاريخ هذه الإمارة.

المرابطون:

تعتبر صنهاجة إحدى كبريات قبائل البرانس الأمازيغية، بل أعظم قبائلها بالمغرب، تنتشر بطونها في كل جبل وبسيط حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث الأمازيغ رغم أن هناك من النسابة من يزعم أن صنهاجة وكتامة من حمير خلفهم الملك أفريقش بالمغرب فاستحالت لغتهم إلى الأمازيغية، والحقيقة خلاف ذلك، ومنهم قبائل كثيرة تناهز السبعين(60). ينحدر المرابطون الملثمون من قبائل صنهاجة من لمتونة من الطبقة الثانية، (الطبقة الأولى منها آل زيري بن مناد ولاة العبيديين بأفريقية ودول أخرى كثيرة(61)، كانوا يرتحلون بالصحراء ما بين السينغال والنيجر جنوب المغرب الأقصى، اعتنقوا الإسلام نهاية القرن 3هـ، ورغم ذلك لم يكونوا على دراية بواجباتهم تجاه العقيدة الجديدة، تزعمهم أبو عبد الله بن تيفاوت(62)، وبعد وفاته تولى أمرهم يحيى ابن إبراهيم الكدالي الذي اعتزم أداء فريضة الحج فترك على رأس صنهاجة ولده إبراهيم،

وفي طريق عودته من مكة سنة 1049م استعان بأحد فقهاء المالكية بمدينة القيروان المدعو أبو عمران الفاسي الذي كتب لأحد تلامذته أبو محمد واجاج اللمطي بالسوس الأقصى(63) بنفيس قرب أغمات لينتدب بدوره أحد تلامذته النبهاء ليرافق يحيى بن إبراهيم يعلم صنهاجة أمور دينهم، فأوصى له بالإمام عبد الله بن ياسين الجزولي(64)، هكذا، وبعد استقراره بين لمتونة شرع في وعظهم دون كبير فائدة فتراجع نحو السينغال حيث قام بتأسيس رباط جمع فيه عددا من أتباعه سموا المرابطين ليعلن بعدها الجهاد من أجل تطبيق السنة النبوية واحترام تعاليم الإسلام الحقة وفق المذهب المالكي(65)، هذه الرحلة تؤكد مدى تمسك الأمازيغ بالعقيدة الإسلامية منذ زمن مبكر حيث كان لابد من السند الديني الصحيح لجمع شمل القبائل بالصحراء وتوحيدها من أجل بناء دولة قوية سوف تمتلك الغرب الإسلامي برمته، ثم من جهة أخرى تشير هذه الرحلة إلى أن مقاومة الأمازيغ للعرب كانت بسبب تسلط القواد والولاة العرب الذين كانوا يأخذون كل شيء بالقوة بدل الدعوة للعقيدة الجديدة بالتي هي أحسن، الشيء الذي رفضه الأمازيغ، وأسفر عن إراقة دم كثير بين الفريقين.

اجتمع للشيخ عبد الله بن ياسين ما يكفي من الرجال ليعلن الجهاد على من خالفه من القبائل بدءا بكدالة ثم لمتونة سنة 434هـ(66)، فقامت دعوة عبد الله بن ياسين على أسس دينية خالصة حيث اعتمد تحفيز المرابطين من أتباعه على الجهاد بغية مرضاة الله والظفر بالجنة التي أعدت للمتقين وأن الله سينصرهم ما داموا ينصرون الحق وينشرون الدعوة المحمدية ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

انطلقت عملية الجهاد وتوحيد القبائل الأمازيغية وتعاقب على زعامة جيوش المرابطين، على عهد عبد الله بن ياسين، كل من يحيى بن عمر اللمتوني الذي استقام له الأمر فملك جميع بلاد الصحراء والسودان وقد كان من أهل الزهد والدين والصلاح(67)، ثم أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني سنة 448هـ الذي أخضع بلاد السوس والمصامدة، وقد اتصف هو الآخر بالورع والعمل بالتعاليم الإسلامية(68)، ثم من بعده القائد يوسف بن تاشفين الذي سطع نجمه إبان الحروب التي خاضها على رأس جيوش المرابطين في عهد أبي بكر بن عمر، فغزا جزولة وتارودانت إذ قتل المرابطون بها خلقا كثيرا عرفوا بالرافضة نسبة لعي بن عبد الله البجلى الرافضي، صاحب مذهب الرافضة(69).

ما زال عبد بن ياسين متقدما في نشر دعوة المرابطين، فغزا جبل درن وبلاد رودة ومدينة شفشاون ونفيس، فأخضع قبائل وبايعته أخرى ودخل مدينة أغمات سنة 449هـ ففر منها حاكمها لقوط، ثم قتل ملوك بني يفرن وملك أغمات معهم وبعدها أخضع برغواطة بتامسنا(70).

شرع المرابطون في السيطرة على مملكة غانا والمغرب بزعامة يوسف بن تاشفين، الذي أتم بناء مدينة مراكش، التي بدأ بناءها أبو بكر بن عمر سنة 451هـ/1060م ،لتكون عاصمة لمملكته، وموحد المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط سنة 472هـ.

هرع يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين بالأندلس وتوسيع دائرة ملكه، فكانت معركة الزلاقة سنة 482هـ الموافق ليوم 2 نونبر 1086م، حيث هزم جيوش الإسبان وقتل ألفونس السادس الذي كان قد انتزع طليطلة من المسلمين قبل عام فوحد الأندلس تحت راية دولة المرابطين بعد حروب ضد ملوك الطوائف هزمهم خلالها وقتل منهم عددا غير يسير بسبب طغيانهم وموالاتهم لعدوهم في الدين وسار على نهجه من بعده إبنه علي (500هـ إلى 537هـ) وانتقلت حضارة الأندلس إلى بلاد المغرب(71).

تلقب يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يأخذ لقب الخليفة أبو العباس المستظهر بالله العباسي رغم ما كان له من القوة وما بلغ من العزة لأنه اعتبر لقب أمير المؤمنين خاصا بالخليفة، والخليفة من قريش، فاستأذن الخليفة ليعقد ويعهد له على ما بين يديه من الأقطار والأقاليم(72)، سلوك من هذا القبيل ينم عن دهاء وولاء، فهو بذلك يتقي شر دار الخلافة ويضمن الاستقلالية. لقد حكم يوسف بن تاشفين نصف قرن من الزمن وحد خلالها شمال أفريقيا والأندلس، وأخضع القبائل الأمازيغية الأخرى، إلا ما سلف من تقتيل للقبائل الأمازيغية المناوئة، خاصة ما ألحقه بتامسنا من دمار.

بدأت قوة الدولة المرابطية تتراجع مع ظهور المهدي بن تومرت في عقر دار السلطة المرابطية بعد 14 سنة من حكم علي بن يوسف(73) ليظهر الموحدون كقوة جديدة بالغرب الإسلامي على أنقاض الدولة المرابطية.

الموحدون:

انتزعوا الملك من المرابطين سنة 541هـ/ 1146م، واستمر حكمهم حتى العام 597هـ/1202م، وبالأندلس إلى غاية 1169م .. قامت دولتهم على التوحيد.

استقر الموحدون بجبال الأطلس، بجبل درن ويعود نسبهم لمصمودة، كانوا أكثر عددا وأشد قوة وطاعة للدين مخالفين لإخوانهم برغواطة، ومن مشاهيرهم يحيى بن يحيى راوي الموطأ عن مالك، وهو الذي شهد فتح الأندلس مع طارق بن زياد مع ثلة من مشاهير المصامدة الذين استقروا

هناك، وكان لأعقابهم بها ذكر في الدولة الأموية(74)، الشيء الذي يؤكد تعلق هذه القبائل الأمازيغية كغيرها من صنهاجة بالعقيدة الإسلامية منذ ظهورها، ثم إن المهدي بن تومرت نفسه أبدى شغفا كبيرا منذ صغره بحفظ القرآن الكريم وتحصيل علوم الدين فارتحل إلى المشرق ليتتلمذ على يد كبار الفقهاء ثم يعود إلى المغرب قصد نشر الدعوة الإسلامية من موقع العالم العارف بأمور الشريعة ومناهجها واختلاف مذاهبها.

ظهرت حركة الموحدين بداية القرن 12م على يد محمد بن تومرت من قبيلة هرغة المصمودية الأمازيغية، كان ورعا مولعا منذ صغره بأمور الدين. فارتحل إلى المشرق لطلب العلم ثم عاد يجول في الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاجتمع حوله خلق كثير بالأطلس الصغير بجبل درن، جاء مذهبه مناوئ للمذهب المالكي يدعو للعودة للأصول الأولى للإسلام، كان ميالا للمذهب الشيعي بسبب دراسته بالمشرق، عمل بمبدأ التأويل الذي يبعد الذات الإلهية عن التجسيم ومشابهة الحوادث من خلال تأويل الآيات القرآنية(75)، عرف في صغره باسم أمغار وهناك من المؤرخين من يرد نسبه إلى آل البيت(76)، ربما ليتخذ صفة المهدي، أقام بالأطلس الكبير حيث نظم جيشا ذا مرجعية دينية إسلامية صارمة، وفي سنة 1121م أعلن قيام المهدي المنتظر من طرف الشيعة...

توفي ابن تومرت سنة 522هـ فخلفه عبد المومن بن علي الكومي، لقد أوكله ابن تومرت أمر الموحدين رغم كونه من غير جلدة المصامدة، لماذا؟ ألم يكن في ذلك مغامرة قد تفرق بين شعب المصامدة؟ أليست العصبية أساس لحمة القبيلة خاصة النسب على حد رأي العلامة عبد الرحمن بن خلدون؟ يزعمون أنه تم إخفاء موت ابن تومرت ثلاث سنوات خوفا من أن يشيع خبر موته فتتفرق القبيلة، وقد ظل أتباع عبد المومن على تلك الحال يدبرون أمر الموحدين إلى أن حان وقت كشف الأمر وحفز الناس على بيعة صاحب المهدي سنة 425هـ(77) فأعلن الجهاد على المرابطين واستولى على المغرب وتلمسان وفاس ثم العاصمة مراكش إلى حين سقوط الدولة المرابطية عام 1147م.

بعد هذا أضحى عبد المومن بن علي الكومي (1130- 1163م) على رأس مملكة تضم شمال أفريقيا إلى طرابلس إلى الأندلس، ثم خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب (1163 – 1184م) الذي أتم فتح الأندلس، لكن بعد معركة العقاب سنة 609هـ/1212م (وقعت المعركة في واد يسميه الإسبان نافاس قرب بلدة تولوسا وهذا سبب تسميتها بمعركة "لاس نافاس دي تولوسا"، ووقعت كذلك قرب حصن أموي قديم يسمى "العُقاب" لذلك تسمى في التاريخ العربي باسم معركة العقاب أو معركة

حصن العقاب)، انهزمت جيوش الموحدين الذين كان يقودهم السلطان محمد الناصر، هذا الأخير فر بعد مقتل ابنه في المعركة فتضاربت أقوال المؤرخين في تقدير عدد القتلى في صفوف الموحدين بين 60 إلى 100 ألف، لقد كانت مجزرة حقيقية ضد المسلمين جعلت النصارى يشعرون بالقوة ويسعون بعدها لإضعاف شوكة المسلمين وطردهم وإجبارهم على الارتداد كما حدث مع الموريسكيين الوافدين على المغرب... فكانت هذه الهزيمة بداية نهاية الحكم الموحدي وبالتالي طرد المسلمين من الأندلس، فظهر المرينيون الذين نزلوا بمراكش سنة 1269م. فاستولوا على باقي تراب المغرب الأقصى.

الحفصيون:

هم قبيلة أمازيغية من هنتاتة المصمودية خرجت من صلب الدولة الموحدية، تزعمها أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، شيخ قبيلة هنتاتة، كان قد جعله الخليفة الموحدي الناصر خليفة على أفريقية ومد يده هناك، خاصة وأن الدولة الموحدية ظلت تعاني من خطر ابن غانية صاحب مايورقة، فحقق عبد الواحد بن أبي حفص انتصارا ساحقا على يحيى بن أبي إسحاق بن غانية المايورقي في إقليم الزاب عام 604هـ/1408م(78)، هذا الانتصار وضع حدا لابن غانية وجعل نجم الحفصيين يتلألأ، وأمام وهن الموحدين وتصدع دولتهم وعجز أمرائهم عن الحفاظ على وحدة الأمبراطورية الإسلامية، ثم ظهور المرينيين بالمغرب الأقصى والزيانيين بالمغرب الأوسط والحفصيين بالمغرب الأدنى، اشتدت المنافسة حول السلط بين هذه الدول بغية التوسع وبسط النفوذ، كل هذه العوامل تظافرت لتضعف شوكة الموحدين فاستفرد الحفصيون بحكم أفريقية في عهد أبي زكرياء الذي أعلن الاستقلال عن الدولة الموحدية عام 627هـ.

المرينيون:

يعود نسب المرينيين لقبيلة زناتة، إحدى القبائل الأمازيغية الكبرى، إلى جانب صنهاجة ومصمودة، ينحدرون من بلاد الزاب الكبير وقد اختلفت آراء المؤرخين في نسبهم فمنهم من يردهم لجدهم مرين، ومنهم من يجعل أصلهم عربي، من قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(79)، ينتمون إلى الجيل الثاني من زناتة، كان استقرارهم بالمناطق الشرقية على الحدود مع الصحراء بمنطقة الزاب قبل نزوحهم نحو المغرب الأقصى حوالي سنة 610هـ واستقرارهم في المناطق الشرقية والجنوب شرقية، جاهدوا إلى جانب الموحدين بالأندلس وشهدوا معهم هزيمة موقعة العقاب عام 609هـ/1212م، ويرى صاحب الاستقصا أن الأسباب التي هيأت امتلاك المرينيين للمغرب الأقصى هي هزيمة الموحدين وكذا الوباء الذي حل بدولتهم(80)، فقاموا بضم

العديد من المدن إلى حضرتهم خلال عهد الأخوين أبو يحي عبد الحق (تولى أمر بني مرين سنة 642هـ إلى 656هـ) وأبو يوسف (حكم بين 657هـ إلى) منها فاس (646هـ) ومدينة سلا ورباط الفتح (649هـ) ومراكش (668هـ في عهد أبي يوسف).

مع حلول سنة 1269م استمروا في زحفهم على سائر تراب المغرب الأقصى، إلى أن قضوا على الموحدين وتوسعوا نحو المغرب الأوسط، فاستولوا على مدينة وهران. لقد عرفت الدولة المرينية عصرها الذهبي في عهد السلطانين أبي الحسن علي (1331-1351م) وأبي عنان فارس (1351-1358م) حيث ازدهر العمران والفكر وسطع نجم العديد من العلماء نذكر منهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون والرحالة الأنثروبولوجي ابن بطوطة... وانتصروا على ملوك بني عبد الواد فسيطروا على عاصمتهم تلمسان فبلغوا المغرب الأدنى...

اتخذ المرينيون مدينة فاس عاصمة سياسية لحكمه وهي الجزء الغربي من فاس وتسمى المدينة البيضاء التي بناها يعقوب بن عبد الحق المريني.

كان تدخل المرينيين ضد الموحدين عسكريا محضا دون سند ديني، فجاء حكم زعمائهم بداية الأمر بصفة "السلطان" وليس "أمير المؤمنين" في حين استأثر بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، أما الأندلس فتهاوت على يد المسيحيين خلال النصف الثاني من القرن 14م ليسقط بعدها آخر معقل إسلامي هو غرناطة سنة 1492م(81).

هذا العز لم يعمر طويلا لأسباب منها الصراعات الداخلية، فكل دولة تحمل بين طياتها أسباب انهيارها، ومعلوم أن العهد المريني اتسم "بالاغتيالات السياسية"، حيث كان الصراع على الحكم عنيفا بين سلاطين الدولة، فمنذ العام 1358م بدأت الدولة المرينية تتقهقر وقد تولى الحكم ملوك دون سن الرشد يعيشون تحت وصاية أبناء عمومتهم من الوطاسيين فثار أهل فاس على المرينيين الشيء الذي فسح المجال أمام ملوك الوطاسيين لتدبير الشأن العام وانتهت دولتهم العام 869هـ - 1465م، ثم هناك عامل آخر يبدو أساسا في اندحار دولة بني مرين هو الدور السلبي لليهود بسبب تواطئهم مع النصارى وهو دور اتسم به اليهود على مدار التاريخ الإسلامي ...

تميز المرينيون عن غيرهم من الدول، خاصة المرابطية والموحدية، كونهم لم يتعصبوا لمذهب معين بل انفتحوا على كل المذاهب وتركوا الحرية لأشياعهم الشيء الذي شجع العديد من العلماء على الارتحال إلى المغرب هربا من المد النصراني بالأندلس مثل ابن الخطيب (ت 776هـ - 1374م) والعلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ - 1405م)، وظهر العديد من العلماء مثل ابن عذارى المراكشي (ت 712هـ - 1312م) وابن البناء (ت 721هـ - 1321م) وابن أجروم (ت

723هـ - 1323م) وابن رشيد السبتي (733هـ 1333م) وابن أبي زرع الفاسي (ت741هـ - 1340م) وعبد المهين الحضرمي (ت 749هـ - 1348م) وابن الحاج (مؤلف فيض العباب، ت 774هـ - 1372م) والرحالة ابن بطوطة الذي كتب رحلته بتكليف من السلطان أبي عنان المريني (ت 779هـ - 1377م) ...(82) ناهيك عمن هلك من العلماء كانوا مع السلطان أب الحسن على متن أسطوله في طريق العودة من تونس وقدر صاحب نفح الطيب عدد العلماء والفقهاء الذين هلكوا بأربع مائة، كان ذلك في شتاء سنة 705هـ(83)، هذا التجلي الديني كان ميزة لملوك بني مرين، فقد رعوا العقيدة الإسلامية حق رعايتها، ونضرب مثلا هنا بالسيدة أم اليمن بنت محلى البطوئي أم الأمير يعقوب بن عبد الحق والتي كانت فاضلة صوامة قوامة ذات عقل ودين حجت بيت الله الحرام ثم ما فتئت أن عادت مرة ثانية للحج لكن المنية وافتها بأرض مصر(84).

أما الميزة الثانية، فإن عهد بني مرين كان عهد حرب واقتتال بين بيني مرين أنفسهم وأبنا عمومتهم الزيانيين البنو عبد واديين ملوك تلمسان من الطبقة الثانية من زناتة، استقروا بمصاب جبل راشد وفجيج وملوية وكانت بينهم وبين بني مرين أبناء عمومتهم فتن، أعلنوا ولاءهم للموحدين عند نزولهم بتلمسان(85)، كانت الاغتيالات من أجل السلطة... إنه عصر الاغتيالات السياسية بامتياز.

الوطاسيون:

يعود أصلهم للمرينيين لكنهم ليسوا من ذوي عبد الحق، استأثروا بمنطقة الريف بشمال المغرب وجعلوا كبير همهم انتزاع الملك من المرينيين إلا أنهم ما فتئوا أن أذعنوا لهم وصاروا في خدمتهم فجعل منهم سلاطين بني مرين وزراء وحجاب وعمال فأحسنوا البلاء وحسن أثرهم في الدولة(86)، ويرى بنو الوزير، رؤساء بني وطاس، أنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين أي أنهم من صنهاجة وإنما طول مقامهم بين بني وطاس جعلهم ينصهرون فيهم ويلبسون ثقافتهم(87).

حكم الوطاسيون المغرب ما بين سنوات (1358- 1375م) ثم (1393- 1458م)، اتخذوا من مدينة فاس مستقرا لهم، أصولهم أمازيغية، وقد كان ظهورهم مع أقربائهم المرينيين فسيطروا على منطقة الريف في بداية الأمر ثم توسعوا ليطيحوا نهائيا بالمرينيين، جاؤوا هم أيضا من منطقة الزاب فعمدوا منذ البداية إلى مزاحمة المرينيين في ملك المغرب واكتفوا بدور الحجابة لكن المرينيين أقاموا لهم مذبحة سنة 1458م لم ينج منها إلا القليل منهم محمد الشيخ المهدي الذي استقر بمدينة أصيلة شمال المغرب سنة 1465م ومن هناك انطلق ليستولي على فاس سنة 1472م لكن البرتغاليين فاجئوه بالهجوم على أصيلة هكذا وجد الوطاسيون أنفسهم في مواجهة العديد من

الإمارات المرينية (إمارة دبدو) من جهة ثم الخطر البرتغالي والإسباني الزاحف على مدن سبة وطنجة والمد السعدي الذي استغل هذا الوضع سعيا لتأسيس كيان سياسي جديد.

إن الحديث عن تاريخ الأمازيغ بالشمال الإفريقي هو حلقة أساس في مسيرة حضارة تم حجب جزء كبير منها لاعتبارات ذاتية لا تتوخى البحث الموضوعي، فكل أمة لا تبحث في تراثها وتاريخها هي أمة آيلة للتخلف والتقهقر لأن أهمية التاريخ لا تتجلى في سرد الوقائع وحسب ولا في ذكر الأعلام والأماكن لكن أيضا في الوقوف عند مكامن القوة والضعف من أجل بلور مفهوم حضاري لكل هذه الوقائع والأحداث التي تمر بأمة واستخلاص العبر منها لاستشراف المستقبل.

خلاصة

لقد عرفت أرض الأمازيغ حضارة كبيرة وحمل شعبها ثقافة تفاعلت مع الثقافات المجاورة لهم منها الثقافة بونية التي هي ثقافة أمازيغية فينيقية ثم إن الملك مسينيسا شجع الفكر اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد وقد ألف يوبا الثاني كتاب "ليبيكا" يتحدث عن بلاد الأمازيغ(88)، ثم إن أول أديب أمازيغي الأصل لاتيني اللغة ظهر في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد أي قبل نزول الرومان في أفريقية ثم تيرينتيوس آفر Terentius Afer(185-159ق م) أي الأفريقي، وقد خلد ست مسرحيات، وأفولاي (125-170م) أحد المفكرين العالميين صاحب كتاب "التقمصات" (Les Métamorphoses) في أحد عشر جزء(89) وصاحب أول عمل روائي هو "الحمار الذهبي" ...، فاحتكاك الأمازيغ بالحضارات الأخرى جاء في إطار المثاقفة L'acculturation.

لقد ظلت منطقة الغرب الإسلامي، أي الشمال الإفريقي والأندلس، تعاني من عدم الاستقرار، رغم ما تكبدته الدول الكبرى، المرابطية والموحدية، من عناء الحروب والمواجهات مع القبائل المناوئة لتوحيد هذه القبائل ومحاربة العدو في الدين، لقد كانت الواجهات متعددة، سواء بالأندلس أو بالمغرب الأدنى والأوسط والأقصى إلا أن المواجهة المذهبية كانت الأعنف فالمذاهب تفشت بين القبائل الأمازيغية خاصة المالكية والخارجية وقد وجدت هذه المذاهب في بلاد الأمازيغ مرتعا لها لتأجيج اختلافاتها، فالمالكية مثلا، تعتبر الخوارج خارجين عن مذهب أهل السنة، وقد ذكر ابن أبي يزيد (فتوى ابن أبي يزيد، المعيار)أن الإمام مالك وأصحابه لا يأخذون بشهادتهم وأن علماء آخرين يقبلون بشهادتهم في الأماكن التي يمثلون فيها الأغلبية وأنه يجوز للمالكية تعليم القرآن عند الاقتضاء لأبناء الخوارج دون الكتابة ومن الخوارج في جربة، حسب الشريف الإدريسي، من لا يماسح الثياب أو يأكل مع من هم على غير مذهبهم(90) من هنا يبدو أن السند الديني كان حاضرا عند تأسيس كل دولة فهو الذي يضفي الشرعية على السلطة وبالتالي دار

الملك، باستثناء مملكة نكور وفيما بعد الدولة المرينية التي اعتمدت قوتها العسكرية في البداية لتبحث بعد ذلك عن الشرعية الدينية، فالمرينيون لم يكونوا بالقوة التي تمكنها من بسط نفوذها على سائر بلاد الغرب الإسلامي حيث تم تقاسم الشمال الإفريقي بين بني عبد الواد الزيانيين بالمغرب الأوسط والحفصيين بالمغرب الأدنى والمرينيين بالأقصى، أما الأندلس فلم يستطع المرينيون الحفاظ على وحدته رغم كل محاولات كما فشلوا في استعادة وحدة الشمال الأفريقي كما كنا في عهد الموحدين خاصة تلك الجهود التي بذلها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن والتي باءت بالفشل.

لقد اهتمت الدول الأمازيغية بالمجالين الديني والروحي بشكل كبير لم يسبقهم إليه غيرهم سواء بالمغرب أو بالأندلس، لهذا نجد بعض المدن حظيت بالقسط الوافر من العمارة الإسلامية مثل مدينة فاس التي شهدت عصرها الذهبي في العهدين المرابطي والموحدي لاسيما في عصر الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي الكومي ثالث الخلفاء الموحدين (580-590هـ) وولده محمد (590-610هـ)، حيث بلغ عدد المساجد بفاس 785 مسجدا(91)، هكذا برز عدد من الفقهاء والخطباء اعتلوا منابر المساجد، نذكر منهم أواخر العهد الموحدي والعصر المريني، الخطيب المبارك الصالح المهدي بن عيسى ثم الفقيه الصالح بن عطية والفقيه يسكر بن موسى الجورائي وغيرهم كثر(92).

مهما يكن من قول فإن تشبث الأمازيغ/الأمازيغ، بالدين الجديد لم يضاهيه سوى تمسكهم بأرضهم واستماتتهم في الدفاع عنها وقد كان لهم الدور الكبير في نشر الإسلام والتشبع بتعاليمه، فاللبس التاريخي القائم حسب اعتقادي هو بين نشر العقيدة الإسلامية والغزو العربي المتلخص في سلوك الولاة العرب ودار الخلافة بالمشرق ثم من بعدهم بنو هلال وما ألحقوه من ضرر ببلاد الأمازيغ حيث كانوا مثل الجراد المنتشر أتوا على الأخضر واليابس واستباحوا الأرض والعرض ووضعوا سيوفهم في قبضة كل جموح للسلطة والملك، على حد تعبير صاحب العبر.

الهوامش

1) بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية، أدوارها، ومواطنها، وأعيانها، ج1، الطبعة 4، 2010، ص. 14إلى16
2) Mercier, Ernest (1840-1907). Histoire de l'Afrique septentrionale, Berbérie, depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française. 1888. Tome 1. Imp Durand. Paris. P9
3) عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، ج1، منشورات تامنغاست
4) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج3، ص.116
5) نفسه. ص116
6) القلقشندي، قلائد الجمان، نفس القول عن الأصول العربية للبربر نجده عند ابن أبي زرع، صاحب الأنيس المطرب والذخيرة السنية وغيرهم من النسابة، وهو الأمر الذي يدحضه عبد الرحمن بن خلدون
7) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م. س، ص.126
8) مدينة أثرية تبعد 3 كلم عن مدينة العرائش و22 كلم عن موقع زليل القريب من جماعة "إثنين سيدي اليماني" بإقليم طنجة، بنيت زليل القريبة من جماعة "إثنين سيدي اليماني" بإقليم طنجة. بنيت على الضفة اليمنى لوادي اللكوس من المدخل الشمالي للعرائش فوق هضبة تسمى "التشوميس" مطلة على الساحل الأطلسي على علو 80 مترا، تقدر مساحتها بحوالي 75 هكتار وقد لعب موقع ليكسوس (هو الإسم الأثري لمدينة العرائش التي بناها الفينيقيون
9) الملك ماسينيسان (202 ق.م. - 148 ق.م.) ابن الملك غيان المتوقي سنة 206 ق.م. ابن زكلسان اشّفط - صاحب السلطة التنفيذية - في دقة وهو "ماسينيسان" والد الملكين: غولوسا وميقيبسا ومن أشهر أحفاده يوغرطة
10) تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، حضارات إفريقيا القديمة، المشرف على المجلد: د.جمال مختار، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام، جونافريك، اليونسكو، الفصل الثامن عشر، بقلم، ب.هـ. وارمنجتون. ص 470
11) نفسه، ص.470، كذلك عند :

Cherbi Moh et Thierry Deslot: Les rois berbères, Paris-Méditerranée. 2010. p.46 .

12) تاريخ إفريقيا العام، م. س، المجلد 2. القسم 2. بقلم ب.سلامة، ص514/513
13) عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق أحمد بن ميلاد، ومحمد إدريس. مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1990، ص 29
14) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.1، الطبعة الأولى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص.35
15) نفسه، ج.1، ص. 36
16) نفسه، ص. 37
17) عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا ...، م.س، ص. 66
18) نفسه، ص 87
19) نفسه، ص 95
20) الناصري، الاستقصا ...، م. س، ج.1، ص33و34
21) نفسه، ص.35

22) نفسه، ص.36
23) نفسه، ص.37
24) نفسه، ص.38
25) نفسه، ص.42
26) نفسه، ص.43
27) نفسه، ص.46
28) نفسه، ص.47
29) الناصري، الاستقصا ...، م. س، ج.1، ص.48
30) محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1985، ص.6160، نقلا عن القيرواني الرقيق، وعبد الرحمن بن خلدون، وابن عذارى
31) نفسه، ص.49
32) نفسه، ص.51
33) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، العصر العباسي الثاني، ج.3، الطبعة الرابعة عشرة، مطبعة دار الجيل بيروت ومكتبة النهضة المصرية، 1996، ص.215و216
34) محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج ...، م. س، ص.5
35) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج.2، ترجمة، حمادي الساحلي. ج.2، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص.8و9
36) بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية ...، م. س، ج2، زناتة، ص.205
37) مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ص.138. وفي نسخة أخرى حققها عبد القادر بوباية، (أبو علي صالح بن عبد الحليم الإيلاني، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الثانية)
38) محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160هـ - 296هـ)، الطبعة الثالثة، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، 1987، ص.57
39) محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج ...، م. س، ص.62
40) نفسه، ص. 63
41) عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص.283
42) الناصري، الاستقصا...، م.س، ج.1. ص. 48
43) رجب محمد عبد الحليم، دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125هـ. 455هـ)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المقدمة، (الطبعة لا تحتوي معلومات أخرى. المؤلف أستاذ مادة التاريخ الإسلامي بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية. جامعة القاهرة)
44) سميت باسم النهر الذي يخترقها، نهر نكور، غزاها المجوس سنة 224هـ، ثم عاد سعيد بن إدريس ليحكم قومه مدة 37سنة. كانت بها أبواب عدة وحمامات (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بوفانسال، ج.1، ط.3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص.176)، تقع بين نهرين، نكور وغيس كما ورد عند البكري)
45) نفسه، ص. 178
46) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م. س، ج6، ص.283
47) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب ...، م.س، ج.1، ص.183
48) نفسه، ص. 194
49) نفسه، ص. 247

50) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات المعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج.1، ص. 192، الخريطة
51) نفسه، ص.98و99
52) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م. س، ص. 276و277
53) نفسه، ص14و15
54) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة
55) رجب محمد عبد الحليم، دولة بني صالح ...، م. س.
56) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت 333هـ)، كتاب المحن، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 2006، ص. 230
57) نفسه، ص16و17
58) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، م. س، ص.195و196
59) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م.س، ج6، ص. 286
60) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، م.س، ج. 2، ص.3
61) نفسه، يمكن في هذا الصدد الرجوع إلى ما جاء في الصفحات من 202 إلى 214. (عبد الرحمن بن خلدون في العبر. ج6). كما يمكن الوقوف عند ما ورد في كتاب "الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق10إلى ق12م"، وهو كتاب نقله إلى العربية حمادي الساحلي، عن النص الفرنسي للمؤلف هادي روجي إدريس، 1962، ج1، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1992، بيروت.
62) نفسه، ص.5
63) أورد ابن خلدون في كتاب العبر، ج6، ص.243، أن الفقيه أبو عمران كتب إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسجلماسة وهو من الآخذين عنه. فطلب منه ان يوكل لهم من يأخذ بيدهم في أمور دينهم. فاختار لهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي. وهو الأمر الذي يناقض ما ورد عند صاحب الاستقصا.
64) Ismaël Hamet,... Histoire du Maghreb. Cours professé à l'Institut des hautes études marocaines. 1923. P79
65) Ibd. P. 80
66) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا ...، م.س، ج. 2، ص.9
67) نفسه، ص.10
68) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.12(تجدر الإشارة أن الناصري أخذ عن بن خلدون في هذا الصدد وهو يعلن عن ذلك في أكثر من مقال)
69) نفسه. ص13
70) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.14
71) عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، م.س، ص. 249و250.
72) الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.53
73) الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.251
74) عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص. 299
75) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، العصر العباسي الثاني، ج.3، مطبعة دار الجيل بيروت ومكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة عشرة، 1996، ص.270، ثم ابن خلدون في كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص.302
76) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص.301
77) نفسه، ص. 306،(ذكره أيضا الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.91)

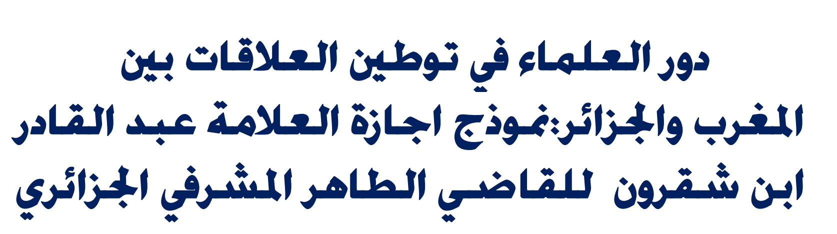
78) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، المجلد3، ج.5، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 1994، القاهرة، ص. 19
79) علي بن ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط. 1972، لا يوجد رقم الطبعة، لكن نرجح أنها الأولى من كلام المقدمة، ص.14
80) الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.3، ص.4
81) Ismaël Hamet,... Histoire du Maghreb. Cours professé à l'Institut des hautes études marocaines. 1923. P155
82) عامر بن عبد الله حسن، دولة بني مرين، تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصراني في إسبانيا (688هـ - 869هـ)، رسالة ماجستر، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003، ص. 212و213
83) الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.3، ص. 171
84) علي بن ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية ...، م.س، ص. 23
85) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج.7، ص.97
86) نفسه، ج.4، ص. 118
87) عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، ج.7، ص.287
88) الثقافة الأمازيغية وثقافة الأمازيغيين. www.tawalt.com/wp.../books/33 ص79
89) نفسه، ص. 82و83
90) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج.2، الطبعة الأولى، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص.359
91) علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الطبعة2، المطبعة الملكية الرباط، 1991، ص.44
92) نفسه، ص.56



تاريخ المغرب







دور العلماء في توطين العلاقات بين المغرب والجزائر:نموذج اجازة العلامة عبد القادر ابن شقرون للقاضي الطاهر المشرفي الجزائري

خالد بن أحمد الصقلي
أستاذ باحث بكلية الآداب
- ظهر المهراز - فاس -
شعبة التاريخ

لقد تشكل تاريخ الأمم والحضارات مما راكمته من تراث فكري وثقافي وحضاري عبر مختلف مراحل تطور هذه الأمم التاريخي،و يشكل التراث العربي الإسلامي جزءًا هاماً من حضارتنا وهويتنا العربية الإسلامية.بل وأكثر من هذا و ذاك ،فقد أضحى تدريس هذا التراث بمختلف مكوناته وركائزه وتجلياته وأسُسِه يندرج وبشكل مباشر في المنهجيات التعليمية في التعليم العالي،وفي مختلف تخصصات العلوم الإنسانية في جامعات الوطن العربي ،وبالتالي أمسى الاهتمام بتراثنا المخطوط والحرص على إيصاله وتلقينه للأجيال الصاعدة وحث الباحثين في الدراسات العليا لدراسته وتحقيقه وجمعه وفهرسته ونشره ومن ثم خلق الآليات المستحدثة لتوثيقه و رقمنته وتوسيع مدار انتشاره والاستفادة منه بشكل علمي منطقي ما هو إلا تخطيط واع لاستمرار تواجده في عصرنا ومستقبلنا.

1:ترجمة العلامة عبد القادر ابن شقرون:

فهو ابو محمد عبد القادر بن أحمد بن العربي بن التاودي ابن شقرون([1]) واحد ابرز ابناء هذه الاسرة المعروفين بمدينة فاس، التي ولد بها وتتلمذ فيها على فحول علمائها وشيوخ وقته بجامع القرويين كالعلامة ابي العباس احمد الهلالي([2])وابي عبد الله محمد بن الحسن البناني([3])وابي حفص عمر الفاسي وابي محمد عبد الله محمد جسوس،كما اخذ في رحلته للحج عن الشيخ حسين عبد الشكور البكري الصديقي وبمصر عن الشيخ محمد مرتضى الزبيدي. وقد تقلد خطة القضاء في اواخر دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بسجلماسة وفاس([4]) فالتف حوله جم غفير من طلبة العلم وكان من بينهم صاحب الاستدعاء قاضي وهران الطاهر بن عبد القادر المشرفي والسلطان المولى سليمان واحمد ابن ابي جيدة الفاسي واحمد بن محمد الابرمي([5])،ولم يخلف رحمه الله من المؤلفات ([6]) الا(شرح العشرة الثانية من الاربعين النووية)،وبعض

---

[1])انظر ترجمته عند كل من:-احمد النميشي،تاريخ الشعر والشعراء بفاس ،ص 86،رقم 118.-عبد الحي الكتاني،فهرس الفهارس،ج1،ص(167-233-466-541)ج2،ص622.-ابي القاسم الزياني،تحفة الاعلام في شرح دول الاسلام،مخطوط بالخزانة الامة بالرباط تحت رقم 224،ص168.-محمد الاخضر،الحياة الادبية،ص270.-محمد الازهري،اليواقيت الثمينة في اعيان مذهب عالم المدينة ،ص232.-محمد الكتاني،الازهار العاطرة العاطرة الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس،ص187-188.-مقدمة تحقيقي لكتاب غاية الامنية،ص22.عبد الكبير الكتاني،زهر الاس في بيوتات فاس،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،2002،ج1،ص550-554.-جعفر الكتاني،الشرب المختصر والسر المنتظر من معين اهل القرن13،دار الكتب العلمية،بيروت،ص41 مع قائمة بيبليوغرافية.-موسوعة اعلام المغرب، ج7،ص 2476.السلوة،ط حجرية،ج1،ص95.

[2])انظر ترجمته ضمن تقاييده في هذه السلسة.

[3])هو العلامة الامام والخطيب والمدرس بضريح المولى ادريس بفاس يعد من كبار علماء وقته ولد بها سنة 1727/1133، وبها توفي سنة 1787/1194،ودفن بروضة اسلافه بحي درب الطويل،وانظر ترجمته عند كل من:-سليمان الحوات،ثمرة انسي في التعريف بنفسي،مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ك1264/4،ص70.- عبد الحي الكتاني،فهرس الفهارس،تحقيق اسان عباس،ج1،ص227.-عبد السلام بن سودة ،دليل مؤرخ المغرب الاقصى،ج1، ص89، رقم283.-عبد الكبير الكتاني،زهر الاس في بيوتات فاس،مخطوط بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم ك1281،ج1،ص241-246.-امحمد الزبادي المنالي،سلوك الطريق الوارية بالشيخ والمريد والزاوية،مخطوط بالخزانة الحسنية في الرباط تحت رقم 12444،ص170-171.-محمد المنوني،المصادر،ج1،ص228،رقم614. مقدمة تحقيقي لكتاب غاية الامنية وارتقاء الرتب العلية،لعبد الواحد الفاسي،مرقون بكلية الاداب والعلوم الانسانية في الرباط،ص16-18،مع قائمة بيبليوغرافية عنه.

[4])انظر:عبد السلام بن سودة،قضاة فاس من دولة الاشراف الادارسة الى دولة الشرفاء العلويين،تحقيق عبد العزيز التيلاني،مطبعة انفوبرانت،فاس،ط1، 2009،ص120،مع قائمة بيبليوغرافية عن ترجمته.

[5])ورد نص هذه الاجازة في مخطوط تقاييد تاريخية،لمؤلف مجهول،وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 2811،ص2-5.

[6])ورد في فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط ج2، ص358-359،ان مؤلف كتاب الشقرونية في الطب الموجود بهذه الخزانة في نسختين تحت رقم د2724 ورقم2725د هو لصاحب الترجمة،وهذا خطا لان مؤلف الكتاب هو عبد القادر بن شقرون المكناسي المتوفى حوالي سنة 1728/1040 بينما صاحب الترجمة هو ابن احمد بن شقرون الفاسي المتوفى بعده بحوالي 79سنة،وابن شقرون كذلك هو صاحب كتاب ارجوزة في علم حفظ الصحة وطبائع الحبوب واللحوم والفواكه والخضر والبقول والالبان والمياه،وهو مطبوع بالمطبعة الرسمية العربية بتونس سنة1905، وصاحب مقامة في وصف الرياض وبنت الرماد الطنجية ،نشرها سعيد اعراب بمجلة البحث العلمي ،ع25،ص267-270،السنة13،يناير-يونيو1976.ومن بين مصادر ترجمة ابن شقرون المكناسي:-ابي القاسم الزياني،المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر المولى اسماعيل بن الشريف،مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم

الاشعار([7])،وكان ضمن نخبة من علماء فاس واعيانها الذين بايعوا السلطان المولى سليمان([8]) الذي عاده وزاره وهو على فراش الموت وعند وفاته رحمه الله سنة 1804/1219 وحضر مراسيم جنازته صحبة عدد كبير من خاصة الناس وعامتهم ([9]) وأمر بدفنه داخل قبة ضريح المولى إدريس الأزهر بفاس ولم ينصرف السلطان إلا بعد أن ساهم في تسوية التراب على قبر شيخه.

2:تعريف الوثيقة:

الوثيقة عبارة عن استدعاء للإجازة طلبها العلامة الطاهر بن عبد القادر بن عبد الله المشرفي نسبا الغريسي وطنا،عن كل ما سمعه من العلوم المنقول منها والمفهوم من شيخه العلامة سيدي عبد القادر ابن شقرون الفاسي ،وقد أجازه الشيخ إجازة تامة شاملة عامة،وتوجد نسخة من هذا التقييد مخطوطة بمكتبة الملك عبد العزيز ال سعود بالدار البيضاء ضمن مجموع،وتقع في صفحتين،ومقياسها هو 19×28،ومسطرتها متفاوتة بين الصفحة الاولى والثانية 34-18،وكتبت بخط مغربي عتيق بالالوان الاسود والاحمر،وهي خالية من التعقيبات و الطرر،وبدون ذكر اسم الناسخ وتاريخ نسخها مثبت في الخاتمة وهو8ذي القعدة 1208هـ.ويليها مباشرة تقييد اخر يضم ابياتا شعرية لمجموعة من العلماء بيعقب بعضهم على بعض بما فيهم العلامة عبد القادر ابن شقرون،وتقع في3ورقات من الورقة 104إلى 106 ومسطرتها مختلفة بين20-26.

2:نص الوثيقة:

[ص1] بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.الحمد لله الذي اختار لحمل أعباء شريعته أقواما وشرفهم بالعلم ومنحهم عزا وتوقيرا واحتراما،سخر إليهم معين توفيقه وعنايته و حرصهم بحفظه ورعايته وأحيا أرض قلوبهم بوبلها الغزير فتفجرت بالماء المير فأصبحت أشجارها مورقة وحياضها متدفقة وأزهارها متفتحة وثمارها رائقة وعرفها أريج ومنضرها بهيج ،وصلى الله على بزغ منه فجر المعارف وأشرقت منه شموس اللطائف ينبوع الأسرار ومشرق الأنوار،الذي لولاه لبقيت آثار الخير منطمسة وربوعه وأطلاله دراسة

ج595،ص23-243.-عبد الله كنون،النبوغ،ج1،ص289.-عمر رضا كحالة ،معجم المؤلفين،ج5 ،ص293.-محمد الاخضر ،الحياة الادبية،ص207-212.-محمد بن الطيب العلمي ،الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من ادباء المغرب،ص193-199.-مقدمة تحقيقي لكتاب غاية الامنية،ص23.- عبد الكبير الكتاني،زهر الاس،ج1،ص551.

[7]) انظر:احمد النميشي، تاريخ الشعر والشعراء بفاس،ص86.ومن بين نماذج شعره قصيدة مطلعها:

سلم الامر ولا تجزع اذا *** نابك الامر المهم المفزع

[8])انظر:احمد الناصري،الاستقصا،ج8،ص90.-مخطوط تقاييد في فنون مختلفة،مؤلف مجهول،مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د2436،ص43.

[9]) انظر:عبد السلام بن سودة،اتحاف المطالع،ج1،دار الغرب الاسلامي،بيروت،ص99

وعلى آله وأصحابه الذين نصحوا العباد وبدلوا في تبليغ شريعته غاية الاجتهاد وعلى التابعين لهم بإحسان،الذين رموا رواحلهم في طلب العلم ولم يمسكوا العنان امتثالا لقول من أوضح طريق الرشد وسنه:(من سلك أرضا يطلب بها علما سهل الله له طريقا إلى الجنة) ،وبعد فإن من منن الله تعالى على عبده الخائض في بحر الذنوب الذي لم يزل معتكفا على شهواته وهو عليها دءوب باستعمال الرحلة إلى فاس عاطرة الأنفاس بعد أن ثبت راتعا بوطني ومتأنسا بأهلي وعشيرتي وسكني فخالج قلبي استعمال السير في طلب الخير للمدينة المذكورة فوجدتها بأهل العلم والصلاح مغمورة،فاتسمت سرح نظري وجعلت أقلب في ساحتها بصري وأتعاهد حلق التدريس لأنظر كل العريس متحير البال متهيج البَلْبَال ([10])حتى جلست بحلقة شيخنا ووسيلتنا العالم المحقق والي(أوية)([11])المرفق الجوهر المصدق سيدي عبد القادر بن شقرون فقرأت عليه مشافهة من غير واسطة ما سأذكره نظما ونثرا وغير ذلك بالواسطة ،والكل من كريم فضل سيدنا،ثم المؤمل من كريم فضل مولانا المذكور أن يكمل لنا المقصود بما هو بين المائة مألوف معهود (بإجازة)([12])تامة شاملة عامة من كل ما سمعته عليه من العلوم المنقول منها والمفهوم، وذلك بعض من كتب تفسير القرآن ومسائل عديدة من فني المعاني والبيان ونحو الربع من صحيح البخاري وبعض من مختصر خليل وإما كان بالواسطة فمن ذلك مختصر السنوسي والسلم المرونق في علم المنطق وألفية بن مالك وغير ذلك وجمع الجوامع لابن السبكي،ثم نطلب من سيدنا أن لا يمنع من أتى متطفلا على أمر ليس من ألبابه وبقول لم تأت البيت من بابه فإن التطفل على الكرام رجاح([13])،وليس على فاعله من جناح والسلام على سيدنا ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه وتحياته سلاما مجتدى إلشميم غبر في النسيم تبتهج النفوس برياء وتتعاطى عقار السرور وحمياه من ولدكم وخديمكم الطاهر بن عبد القادر بن عبد الله المشرفي نسبا الغريسي وطنا بتاريخ أوائل ذي القعدة سنة 1201 ،وقد نظمت من سمعته مشافهة من شيخنا المذكور في أبيات على قدر الوسع والطاقة ونصها :

جملة مأخوذة عن الفقيه *** نقي القلب التقي النزيه

حبر الورى مستجمع الخصال *** الجهبذي مرضي الفقال

سما يفح شيخنا الكريم*** له مقام في الوري عظيم

---

[10])"البَلْبَالُ والبَلْبَالَة:شدة الهم والوسواس،وتُجمَع على بلابل وبلابيل"،وانظر المعجم الوسيط،ابراهيم انيس واخرون ،ط2،ج1،ص68،مادة(بلبل).

[11])كذا ورد

[12])ورد(اجازت)

[13])"الرجاح والرجاحة اي الحلم"وانظر المعجم الوسيط،م.س،ج1،ص330،مادة(رجح).

وذا مد أقاصي بفاس *** ملازما لطين الأنفاس

نجل ابن شقرون العليم الوريع *** علي القدر الجلي الرفيع

أول ذاك تفسير القرآن *** يتلوه في النضم في(فقه)(14) المعان

من تخلص المفتاح للقزويني *** الخطيب المشهور بالتدوين

مع ربع من صحيح البخاري *** وأبيات من مديح المختار[ص2]

مما حوى نضم الإمام الكامل *** البوصلي المذكور في المحافل

يصحب ذاك بعض من فصول *** وأبوابا من تالف خليل به

ناضح هذا الدليل الفقير *** الطاهر بن المشرفي الحقير

فامنحه ربي توبة مقبولة *** واحفضه في كنف خير البرية

ثم (الصلاة)(15) وأزكى السلام *** على النبي سيد الأنام

وآله وصحبه الثقات *** أولي الهدي والوقر و(النجاة)(16)

انتهت الأبيات لكاتبها المذكور غفر الله له ذنوبه وملأ من التقوى ذنوبه.

الحمد لله الذي شرف الأنساب بعلمه ورقاه مراقي عالية بفهمه ورفع قدره بين الأقدار وأناله مواهب جلت عن الانحصار والصلاة والسلام على أصل العلوم ومنبعها وبحر الكمالات ومشرعها مولانا ومولى كل مولى الذي لم تزل ولا تزول محاسنه مثلى محمد المحمود في الصدور والورود وعلى آله وصحبه وذويه وحزبه،هذا وقد أجزت المستدعى بيمنه أمد الله بالعرفان والفتح ملكته فيما قرأه علي من الكتب المسطورة في الاستدعاء وغيرها مما يحفظ ويسترعى إجازة وافية عامة شافية على قانونها المعروف وشرطها المقرر المألوف حاثا له تقوى الله العظيم في التعلم والتعليم ومجانبة الدعوى ومخالفة الهوى والصدق فيما يقول بلغه الله كل مأمول وأن يدعو لي بصلاح الحال وركود قار بلا هوال والله يوفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه آمين بجاه النبي الأمين وكتبه(في)(17) 8 ذي القعدة 1208 هـ عجلا عبد القادر بن أحمد بن العربي ابن شقرون أمنه الله وكان له وتولاه.

[ص3]الحمد لله.

حدثني عُرف نسيم الصبا***عن قضب بان عن ربا حاجر

---

(14)ورد فق

(15)ورد الصلات

(16)ورد النجات

(17)سقط

عن سمرات الحي عن جنوب***عن سيرِ ذاك المُبَسَّم العاطِر

قالوا سمعنا طائرا بالحِما***يُنشِد بيتا لا في عامِر

ما أقبح السلوان من عاشق***وما ألذَّ الوَصل من حاجر.

انتهى ولبعضهم:

كيف الوصولُ إلى سعادٍ ودونَه***فتى الجبال ودو نهى حتوف

الرجالُ حافيَة ومالي مركَب***والكَفُّ صِفر والطريقُ مخوف

ولشيخنا أبي حفص سيدي عمر بن عبد الله الفاسي رحمه الله مجيبا عنهما بقوله:

الشوقُ ينهَضُ بالفتى ويسُوقُه***نحو الحمى يسعى به ويطوف

صِدقُ المحبَّةِ سُلَّم فاعلق به***تصِلِ الحبيب ولا يَرُعكَ مَخوف.انتهى.

ولتليمذه سيدي عبد القادر بن أحمد بن شقرون وفقه الله ناقلا مِن خطِّه مجيبا عنهما أيضا بقوله:

لا تيْأَسَنَّ مِن الوصولِ إلى مُنا***صِدقُ المحبةِ مركب معروف

الكُلُّ هَيِّن إن وصلتَ إلى المُنا***فانهض بشوقٍ فالكريمُ رءوف.انتهى.

ومِن خطه أيضا قائلا ولشيخنا سيدي عبد الشكور الطائفي المدني قدس الله سره:

هي عندَك ما غابت وشمس جمالها***لا يعتريها لو علِمت كسوف

[ص4]الحمد لله،من رآك حُقَّ له التهاني في الأنام يسعدُ برؤياكَ يا ضياءَ العين ،من نالها ،المرام حيَّا مُحيَّاكَ البديع الزَّيْن عالي البها يا نور عيني،كيف لا نرتجي للأماني،والجمال وصف لمعنى كون دى الكفين فيك انتهى القوال،ما كان لولاك خلته كالدين على التي هيا نور عيني،في العلا ما ظهر لك ثاني،مِن سناك ننشر وأفلاك رضا البدرين منك ازدها،في رضاك تهدي أملاك والرقابُ والعينُ مِن ذي النُّها يا نور عيني.انتهى.

يا إلاهي في هواهم ***أفرطتُ لوما وجهلا

لا يعرف الشوقَ لها***ولا الصَّبابَة إلا

ولابن رشيد صاحب الرحلة رحمه الله:

يا أهل طيبة قلبي***عن منهج الصبر جارا

وبعدكم لستُ أرضى***مِن البريَّةِ جارا

أشكو إليكم زمانا***عليَّ باللين جارا

ودمعُ عيني عليكم***دمع المزن جارا.انتهى.

[ص5]الحمد لله ولشيخ شيوخنا العلامة سيدي عبد القادر بن احمد بن العربي بن شقرون رحمه الله ومِن خطّه نقلت:

لُذ بالنبيِّ محمدٍ سيد الورى***في المذ لهم مِن الأمور المرجفة

فهو الغيَّاثُ وغيرُه لا يرتجى***صلى عليه الله ما نقطت شفة

وله كان الله له:سَلِّم الأمرَ ولا تجزع***إذا نابَك الأمرُ المُهم المُفزع

ولتصْبُ نفسا بما يبدي القضا***فقضاءُ الله ليسَ يستدفَعُ

واصر من حبل السوى واعمَد إلى***من إليه المشتكى والمفزَعِ

وتَشفَّع بالنبي المصطفى فهو***أولى مَن به يستَشفَع.انتهى.

وله سدَد الله رأيه:توجه بقلبٍ فارغ من لشواغل ***إلى الله تظفر بالذي أنت طالِب

ودع عنك قيدَ الوهم واصرم حِباله***وعُد عن الأكوان فالكلُّ حاجب

وخص بحر خير الخلق واعلم بأنه***هو المنهل الأصفى لمن هو شارب.انتهى.

وله أسعده الله:محمد ذو المزايا يا أصلَ الوجودِ ونوره

وسرُّه المنتشا فالكل منه ظهوره

يعلم هذا خير فاضت علينا بحوره

وله سامحه الله:ما الكون إلا خيال***حقق تجده كذلك

فارحل إلى الله عنه***واسلك جميل المسالك

وله بلّغ الله أمله:

اذهب له فاعمر***واقطع علائق غيره

ولا تمل سداه***وعُم بأبحِر ذكره

وله نور الله قلبه وغفر ذنبه:

حقق ولا تتجازف***والطريقين اعتبار

يلُح لك السِّر جهرا***في زيِّ شمس النهار

انتهى.







بداية ونهاية التقييد

وفي الأخير أرى من باب الواجب توجيه خالص الشكر والتقدير للسادة الأساتذة الأفاضل المشرفين على اخراج هذه المجلة العلمية المنوه بها وهي بحق اضافة نوعية في الحقل التاريخي.



ملف العدد







الكنوز بسوس
بين الخبايا والدسائس ومافيا النفائس

مصطفى أبسان
باحث في تاريخ المغرب المعاصر - مركز دكتوراه تاريخ الجنوب المغرب
كلية الآداب - أكادير

"الذي ينصت إلى المغاربة يعتقد أن المغرب مستودع عجائبي للكنوز" بول باسكون

تقديم:

لا يزال الاعتقاد راسخا عند جل المغاربة بكون أراضيهم تحتوي على العديد من مراث السلف، اعتقاد يعضده عمق تاريخهم وغنى حضارتهم، وحكايات تناقلتها الألسن عن كنوز ودفائن مطمورة تستعصي على العد. فكم من مرة استفاق أهل قرية أو مدشر على نبأ وجود حفر تركها غرباء عبثوا بأحد مزاراتهم، أو مشهد جرار مكسرة بمحاذاة شجرة أو أرض قلبت...وقائع غذت مخيلة البعض وجعلت من هذه الأحداث مرتعا خصبا لنسج قصص هي أبعد ما تكون عن الواقع، وأسالت لعاب آخرين واستدرجتهم إلى هذا المجال بغية الاغتناء السريع من غير طرق وجوهه

المشروعة. فتشكلت لدينا منذ القدم فئة تتدعي استخراج الكنوز والموءودات استغفلت الكثيرين وأوقعتهم في حبال شراكها، بأساليب احتيالية تنم عن باع طويل في النصب. بدليل ما تنشره الصحف من حوادث قتل ونصب واحتيال يكون أحد طرفيها بالضرورة محتالا استغل جشع طماع وابتز أمواله بدعوى تمكينه من كنز مرصود.

لكن مرادنا من إثارة هذا الملف هو الكشف عن خيوط هذه الظاهرة ونفض الغبار عن بعض تفاصيلها، وذلك وقوفا عند باب تتشعب منه الطرق، منها ما هو واقعي يختلط فيه الجانب العلمي بالمعايش، ومنها ما هو خرافي يمتزج فيه السحر بعوالم الروحانيات، ومنها ما يجمع بين الاثنين معا.

سنتطرق في هذا الملف إلى جملة من القضايا التي تمتح من صلب الموضوع، والتي سنقسمها إلى محاور رئيسية وأخرى فرعية نتغيا من خلالها تفسيرا أوضح للمبهم وتفصيلا أطنب للمجمل، غايتنا في ذلك إماطة اللثام عن محتالين يمارسون الابتزاز باسم الكشف عن الكنوز، وكذلك دق ناقوس الخطر الذي يتهدد كنوز المغرب، وذلك من طرف أناس جشعين يهربون أو يبيعون بعض الدفائن النفيسة، والتي تنتمي لحقب تاريخية موغلة في القدم.

لكن قبل الغوص في حيثيات هذا الموضوع الشائك، تتبادر إلى ذهن القارئ بعض من الأسئلة المشروعة، من قبيل حقيقة وجود الكنوز أصلا، والداعي إلى دفنها "كخبيئات"، وكذا المناطق المغربية المشهورة بالكنوز وكيفية الاستدلال على أماكنها. ثم ماهية الأشخاص الممتهنين لحرفة الكنزيين، والطرق التي يستعملونها لاستخراج هاته النفائس. وأخيرا حكم القانون والشرع فيما هو مستخرج.

حقيقة وجود الكنوز، والدواعي التاريخية لظاهرة الاكتناز بالمغرب:

الكنوز حقيقة ثابتة مثبتة لا ينكرها إلا جاحد، تواترت حولها الروايات والوقائع، نافية عنها صفة الوهم كما يدعي البعض. وقد التجأ فئام من الناس إلى القرآن والسنة لإثباتها، وأوردوا نصوصا قطعية لا تترك مجالا للمتشكك في أمرها. من بينها قوله تعالى: "وكان تحته كنز لهما" و " يستخرجا كنزهما" (سورة الكهف) وكذلك قوله تعالى:" فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم" (الشعراء). أما في السنة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: " العجماء جبار و البئر جبار و المعدن جبار وفي الركاز(أي الكنوز) الخمس".

أما في واقعنا المعيشي فقد كشفت الحفريات الحديثة عن وجود كنوز في باطن الأرض، كالمسكوكات النقدية والأواني الخزفية وكذا بعض الحلي والجواهر...، ولا أدل على ذلك من

مخلفات الفراعنة والأشوريين والبابليين...والتي منها ما لا يقدر بثمن، كالقبر الفرعوني لتوت عنخ آمون. فالمتاحف عبر العالم تعج بكنوز تم اكتشافها من طرف علماء آثار وأركيولوجيين تعود لحضارات غابرة.

أما عن الدواعي التي أرغمت المغاربة على الاكتناز فمتعددة، تنصب كلها في عامل الأمن والاستقرار اللذان غابا في فترات ممتدة من تاريخ المغرب، وشكلا حجرة عثرة دون ترابط حلقات تقدمه. فما إن يتوفى سلطان أو تتسلم سلالة حاكمة جديدة مقاليد الحكم، إلا وتنقلب الأمور رأسا على عقب. فتكثر السرقة والنهب وقطع الطرقات، وكذا تهجير بعض القبائل وتتريك المغضوب عليهم وحيازة ممتلكاتهم. مما يفضي إلى جو تنعدم فيه شروط الحفاظ على كل ما هو ذي قيمة، من أموال ونفائس. فيلجأ الناس فرادى وجماعات إلى دفن كل ما خف وزنه وغلا سعره، ويضعون علامات و إشارات و"ترسيمات" لأماكن ودائعهم، على أمل العودة إليها عند استقرار الأوضاع. أما إن حال حائل فيتم توارثها إلى أن تسمح الأوضاع بالكشف عن "خبيئاتهم".

المناطق المغربية المشهورة باحتوائها للكنوز وكيفية الاستدلال عليها:

تعد منطقة سوس بالجنوب المغربي من أكثر المناطق شهرة باحتوائها للكنوز، تليها من حيث الأهمية المناطق المحيطة بمدينة مراكش وبعض القبائل المتواجدة بمقدمة الأطلس الكبير. وتعزى هذه الشهرة إلى وفرة الكشوفات واشتهار ساكنة هذه المناطق بمزاولة النشاطات المتعلقة بالتنقيب عن الكنوز، وامتدت شهرتهم بذلك إلى أن طبقت الآفاق ، خصوصا لدى المشارقة الذين مافتئوا يطلبون منهم العون في بعض المنتديات لفك شفرة ترسيمة أو إبطال رصد على كنز.

والسبب في غنى هذه المناطق بالدفائن يرجع إلى كونها على امتداد التاريخ المغربي بؤرة للقلاقل، فأغلب الدول التي تعاقبت على حكم المغرب كان منشؤها الجنوب(...المرابطون، الموحدون، السعديون، العلويون) وكذلك إلى عامل المناخ غير المستقر ،والذي يدفع بساكنة هذه المجالات إلى دفن كل ما له قيمة تحسبا للسنوات العجاف، بدءا بطمر الحبوب، وانتقالا إلى المدخرات القيمة.

لكن و بشكل عام، تبقى المغارات وأطلال الخرائب والمقابر القديمة أنا كان تواجدها الأماكن المثلى لتواجد الكنوز ، لاسيما في المجالات التي شهدت استقرارا سكانيا عريقا.

أما عن كيفية الاستدلال عن الدفائن، فيختلط فيها الواقعي بالسحر. فعالم الكنوز معظمه مرتبط بالغيبيات، من جن وشعوذة ودجل، وسنأتي على ذكر الطرائق الاستدلالية "العلمية" ثم نتبعها ب"الخرافية".



الاستدلال العلمي:

1 - من المعروف لدى الكنزيين أن لكل دفينة ما يسمونه ب "الترسيمة"، وهي خريطة تحتوي على إشارات وعلامات على مكان تواجد الخبيئة، وهي غالبا ما تكون مكتوبة على رقع من الجلد، ومنها ما هو منقوش على الحجارة أو الأخشاب، أو مسطر بشكل مشفر بين دفتي كتاب.

وتميز بهذا النوع من الاستدلال حضارة الرومان، حيث كثيرا ما تأتي البعثات من الغرب للبحث عن أماكن هذه الدفائن بحجة التنقيب عن الآثار أو الاستكشاف أو بحجة السياحة، ولكن المقصود بالتحديد هو الحصول على الدفائن.

2 - يمكن الاستدلال كذلك على أماكن وجود الدفائن عن طريق الإشارات، وغالبها محفورة على الصخر، ومنها المنقوش على سقف المغارات أو السفوح الملساء للجبال. وتسمى علامات الحفر، ولها مدلولات معينة يعلمها الكنزيون. وتنقسم إلى علامات نافرة أي بارزة على السطح، وحافرة أي منقوشة عليه.

3- يمكن أيضا الاستدلال على أماكن الدفائن عن طريق الأجهزة الحديثة، منها التي تقوم بتصوير مسحي للأرض المراد البحث فيه، وهي جد دقيقة ونتائجها ممتازة. لكن مشكلتها في صعوبة استخدامها.

لكن لا بد من شروط لا بد أن تتقيد بها الخرائط والترسيمات والعلامات لتثبت صحتها ويوثق بمحتواها، وهي:

أولا: يجب أن تكون العلامة على أساس ثابت، سواء أكان حجرا أم شجرا، المهم أن يكون غير قابل للتنقيل، والسبب في الاعتماد على الأساس الثابت، يكمن في أن عملية وضع الكنز لا بد لها من وضع إشارة ثابتة لأخذ القياس عليه نحو الهدف مباشرة، والمتمثل في الشيء المدفون، وفي أحيان كثيرة تدل هذه الرسمة على أخرى، وذلك بشكل تتابعي حتى تصل إلى نقطة الدفين.

ثانيا: صحة العلامة، وذلك بأن تكون غير منقوصة أو متغيرة المعالم لأن ذلك قد يؤدي إلى خطأ في القياس واحتساب المسافات، مما يؤدي إلى نتيجة غير صحيحة.

الاستدلال الخرافي:

يدعي المتقفين للركائز(الكنوز) أنه يمكن الاستدلال على وجودها عن طريق الرؤية الصالحة، والتي لا تفسر إلا على ظاهرها، أما بعض العارفين أصحاب الكشف فيدعون بامتلاكهم ناصية تعيين أماكن الخبيئات.

ومن أشهر الطرائق تلك التي تدعى ب"التبييت"، حيث يأتي الراغب في إيجاد مكان الدفينة إلى عراف ومعه حفنة من تراب المنطقة المشكوك فيها، وبعد تبييتها تحت وسادة العراف، يدعي أن مناما طاف به أعلمه بموقع الدفين.

وتحفل معتقداتنا الشعبية بالمغرب بالعلامات والأدلة الكاشفة عن أماكن تواجدها، حيث يعد ظهور قوس قزح في الوعي الجمعي لبعض المناطق، بمثابة إعلان عن وجود كنز يشير للأرباب الحرفة إلى مكان دفنه ليأتوا إليه ويخلصوه من الرصد(الجن الحارس للكنز)، وغالبا ما يكون المكان ودائما حسب المعتقدات عند قدم قوس قزح.

وقد ذكر الباحث مصطفى أعراب في مقاله "المعتقدات السحرية في المغرب" أن هناك من يعتقد بأن أكل قلب طائر النورس نيئا، يكون بمقدوره رؤية (ودائما من وجهة نظر المعتقد الشعبي) كل ما هو غير مرئي في مخابئ الكنوز، وكذا الجن الذين يحرسونها تحت الأرض.

ومن الطقوس الشائعة أيضا، تعليق بعض التمائم المطلسمة سحريا بعنق ديك أبيض، وتسريحه بمكان مشكوك باحتوائه للكنوز، وبعد استعمال بعض البخور، يضطرب الديك ويستمر في العدو والنبش و النقر إلى أن يتوقف عند نقطة معينة والتي يعتقد باحتوائها للهدف. أو يتم جلب 4 بيضات توضع بالموقع المشكوك فيه، ثم يبخر المكان وتتلى عليها بعض التعاويذ، إذ ذاك تجتمع عند النقطة التي سيبدأ عندها الحفر.

ويبقى استحضار الجن و الاستعانة به من الأكثر الطرائق شيوعا في تحديد النقطة التي تضم الخزينة، وهنا يجتهد السحرة للاتصال بالجن لمدهم بمعلومات تقود إلى مكان الدفين مقابل طقوس شركية أو قرابين قد تشملها أضاحي آدمية.

كيفية استخراج الكنوز:

عند تحديد مكان الدفينة يشترط في المباشرين لعملية الحفر "حسب تقاليد الكنزيين" أن يكونوا على طهارة، وأن يكون لباسهم البياض، أما الوسيط الذي يتولى عملية الحفر فيلزم أن يكون شابا يافعا لا

يتجاوز سنه الثلاثين، مع اتصافه بالشجاعة تحسبا لما سيتبدى له أثناء عملية الحفر. ويمنع الضحك أو الاستهزاء منعا باتا في موقع الحفر لتبعاته غير المحمودة.

ثم بعد ذلك يتم التحقق من كون الكنز مرصودا من عدمه، والرصد هو الحراسة التي تحول دون أخذ الكنز، منها ما هو بفعل الإنسان، حيث يقوم بتسخير الجان بواسطة السحر كعسس على دفينته. ومنها ما تستولي عليه دون تسخير، وذلك بأن تجد الدفينة دون مالك لها، ومع مرور السنوات تتملك النصاب الذي تستوجب عليها الزكاة إلى المرحلة التي يصبح فيها معظم الكنز معشرا. ومنها من يظل سائبا بدون رصد،لكنه مطلسم بطلاسم سحرية فلكية.

والرصد مخلوقات جنية ذميمة تسكن الكهوف والمغارات والفيافي، وهي حسب المعتقدات لا تذوق طعم النوم،إنما تغفو على مقربة من الكنز، مما يفسر على رأيها ذلك الصخب الذي يتعالى على مقربة الدواوير لأهازيج لا يعلم مصدرها، غالبا ما تؤول على أنها لمجموعة رصد يغالب نعاسه.

ولحل عقدة هذه الأرصاد يلجأ الكنزيون إلى السحرة، والذين يدعون بأن حراس الكنز يطالبونهم بقرابين مقابل تمكينهم منه. هاته الأخيرة تتنوع بتنوع قوة الرصد حسب زعم هؤلاء، والتي يمكن أن ترقى إلى قرابين بشرية، متمثلة في الشخص "الزهوري".

فمن هو الزهوري؟ وما هي أهم القرابين الأخرى التي يطالب بها الرصد؟

الزهوري:

طالما ترددت على مسامعنا أنباء اختفاء أطفال من أمام منازلهم، لا لذنب سوى تفردهم بعلامات خلقية مميزة تستأثر بانتباه الكنزيين. منها قصر النظر أو عدم رؤية الأشياء البعيدة، وكذا وجود خط متصل يقطع راحة يده بشكل عرضي، بحيث تبدو راحة يديه ملفوقتان. ونفس الشيء بالنسبة للسانه، أما عيناه فلهما بريق خاص يميزهما تمزق غير واضح في منتهى الجفن. ونادرا ما تجد علامات أخرى لا يدركها سوى السحرة ذوي الاختصاص.

ويشاع لدى هذه الفئة بأن الزوهري واحد من أبناء الجن تم استبداله لحظة مولده بأحد أبناء الإنس، وهذا ما يفسر "ودائما حسب زعم الكنزيين" عدم خوف الزهوري من الجن المرصود على الكنز أثناء تلبسه بأشكال مخيفة من أجل إثارة الفزع في قلوب المنقبين.

ومن الممكن أن يضحى بالزهوري لإشباع رغبة الرصد كاتفاق مبدئي مع الساحر لعدم الحيلولة ومبتغاهم، حيث ترش دمائه حول موقع الدفينة، الأمر الذي سجلت معه السلطات المغربية في عدد من المناطق التي تعتبر معقلا للكنوز المدفونة، اختطاف وقتل الأطفال ممن يحملون العلامات المذكورة آنفا.

قرابين أخرى:

يأتي الديكة في المرتبة الثانية من حيث القرابين التي يطلبها الجن، لاسيما الديك ذو اللون الأحمر، وكذا الديك الأفرق والأبيض...حيث يقوم الساحر بذبحها قبل مباشرة عملية الحفر.

وتدخل القطط السوداء في باب القرابين الموضوعة رهن إشارة الرصد، حيث يذبح منها العشرات.

ولا أدل على ذلك من الواقعة التي تعرض لها جزار بتارودانت، والتي نشرت مؤخرا على أعمدة الصحف. وملخصها أن شخصا اعتاد اقتناء اللحوم لدى الجزار الضحية، ولما استحكمت الثقة بينهما استدعاه الزبون لذبح عجل في ملكيته، لكنه تم تخديره في سيارة الأخير من طرف شخصان، ليجد نفسه مع ما يربو من عشرة أشخاص أرغموه على ذبح 100 قط أسود مع جدي وسلبوه ما بحوزته، ليجد نفسه في الغد في منطقة خلاء بعد أن تم تخديره للمرة الثانية...

أما علاقة الزئبق الأحمر بالجن وباستخراج الكنوز فمسلم بها لدى أهل الاختصاص، إذ أن الجن المرصد على الكنز يطلبون الزئبق الأحمر من الساحر الذي يرافق مجموعة الحفر، لأنه حسب زعم الساحر يعتبر غذاء للجن، ويساعدهم كذلك في إطالة أعمارهم ويجعلهم أقوياء.

أهم المستخرجات الكنزية بالمغرب:

تتعدد أنواع الكنوز التي يتم الكشف عليها بين الفينة والأخرى، فمنها ما هو ذو قيمة مرتفعة، ومنها غير ذي بال. لكن لا تكاد تخرج عن طينة هذه المستخرجات:

1- الذهب على شكل عملات مرابطية أو موحدية، أو على شاكلة مسحوق التبر بنوعيه، الأحمروالأسود.

2- الجواهر والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها، وهي من أنفس الدفائن التي يسيل لها لعاب الكنزيين.

3 - التماثيل التي تكون مادتها الأولية من الذهب أو الفضة أو البرونز أو الرخام. وغالبا ما تكون منتمية للحضارة الرومانية، أو للمماليك الأمازيغية.

4- الكتب خصوصا المكتوبة منها على رقع الجلد، ومنها الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين المكتوبة على جلد الغزال بعناية فائقة، حيث يتم تطويتها لتبلغ العشرات من الأمتار، ويحتفظ بها في أكياس من الحرير مطرزة بخيوط الذهب. ومنها المكتوبة بحروف تفناغ.

5 - بعض الأسلحة مثل البنادق والسيوف...

6- بعض المساحيق التي تستعمل لأغراض سحرية، لكن يبقى أهمها مسحوق الزئبق، والذي يعتبر في عرف الكنزيين أنفس الموجودات نظرا لثمنه المرتفع.



الكتاب المقدس التوراة اكتشف بالجنوب كدفينة يهودية



توراة في ثوب من الحرير مطرز بالذهب



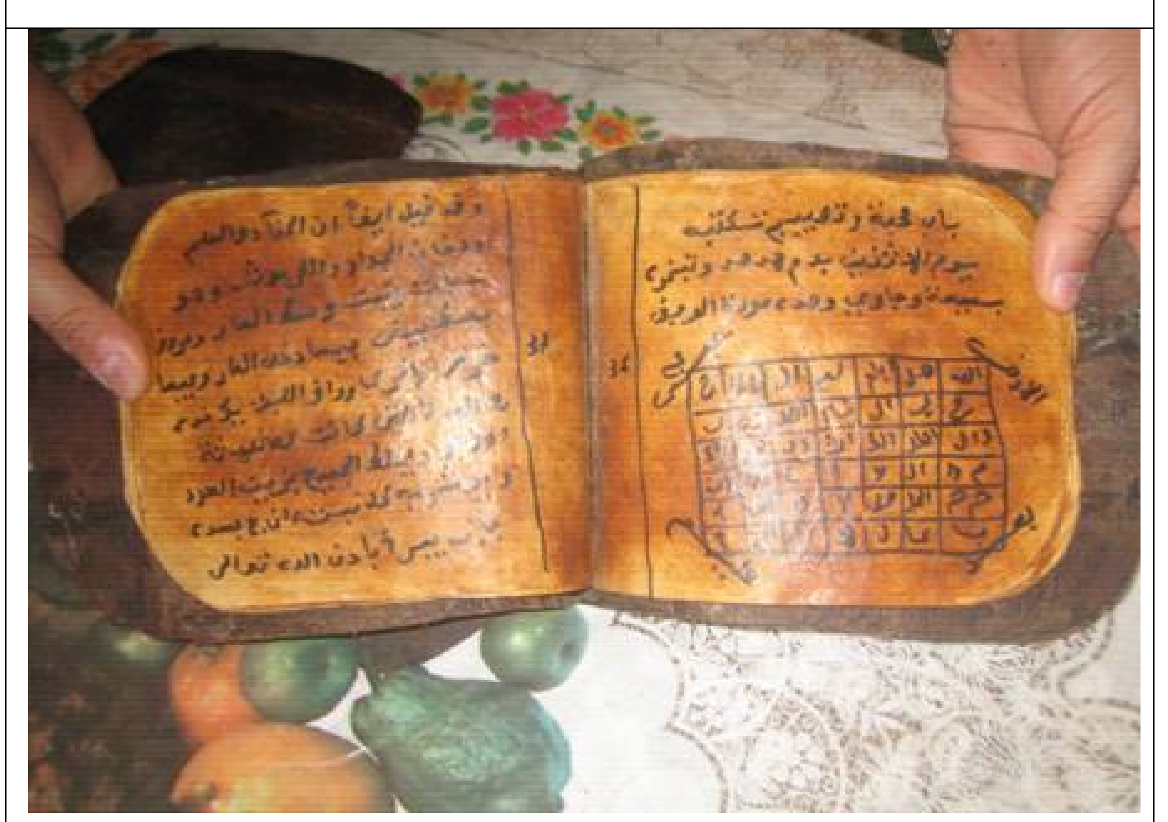
توراة مكتوبة على جلد الغزال طولها 29 مترا



جزء من كتاب التوراة الثالث



كتب عن السحر ليهود سكنوا سابقا الجنوب



كتاب حول السحر مع المكتشفات

مخاطر البحث عن الكنوز:

الكل يعلم أن مسألة البحث عن الكنوز (كما هو متعارف عليها) محفوفة بالمخاطر، مخاطر تتعدد بتعدد الجهات التي يمكن لها أن تتدخل في سياق البحث عن الكنز. فمن الناحية الأمنية يجرم المشرع المغربي كل ممارس لحرفة استخراج الكنوز، وإذا تم ضبطه يعاقب بعقوبات سالبة للحرية وبغرامات ثقيلة، ويصادر كل ما عثر لديه من مستخرجات، أما إذا وجد كنزا صدفة أثناء حفره لأساسات أو بئر..فعليه إشعار السلطات، و التي تكافؤه بمنحه 10 بالمائة من قيمة ما تم استخراجه حسب تقييمها له.

وتتعاظم المخاطر إذا تعلقت بعالم الجن والأرصاد، حيث غالبا ما نسمع بخبر نفي كنزيين إلى أماكن بعيدة، أو اختفائهم دون ترك أثر، وكذلك تم تسجيل حالات لشلل وعاهات مستديمة في صفوف هؤلاء. ويرجع أرباب حرفة البحث عن الكنوز هذه الحوادث إلى خطأ في قراءة العزيمة أو استعمال بخور غير مناسب أو اقتحم مجال الكنز عن جهل أو استخفاف...وتحدث كذلك عمليات الخيانة و السرقة و الغدر بين الباحثين عن الكنز، حيث بمجرد ظهور الخبيئة، يدب الطمع إلى النفوس وتتجلي الدواخل، فيتم تصفية عنصر أو اثنان لتقليص أطراف القسمة.

أما عمليات النصب والاحتيال فهذا المجال يعد مرتعا لها، فكم من ضحية تم التغرير به وسلبه مبالغ مالية مهمة، بحجة تمكينه من كنز أسطوري بضيعته أو من داخل منزله، والوقائع أكثر من أن تحصى في هذه النازلة.

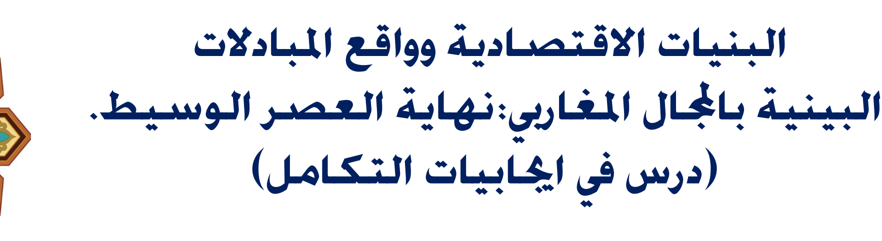
إن عملية استخراج الكنوز خطيرة للغاية، بل هي عملية في منتهى التهور لما تضمره من مجازفة قد تردي كل من يقدم عليها من دون علم مسبق ومعرفة عميقة بعلوم "الجداول" و"التعزيم". فالتعامل مع استخراج الكنوز هو علم قائم على قواعد وضوابط، يتطلب نيله طقوسا وإلماما ببعض الكتب القديمة وباعا طويلا في عالم السحر.

لكن مع ذلك فالملاحظ أن غالب الكنزيين لا خلاق لها، من طينة تعتاش من النصب والاحتيال، تمضي عمرها سعيا وراء السراب، مضيعة لدينها ودنياها في غير جدوى.



تاريخ المغرب الوسيط





البنيات الاقتصادية وواقع المبادلات البينية بالمجال المغاربي:نهاية العصر الوسيط. (درس في ايجابيات التكامل)



عبد الرزاق السعيدي
باحث في تاريخ المغرب الوسيط والحديث

لاشك أن المتتبع للوضعية الاقتصادية في المجال المغاربي خلال العصر الوسيط برمته وخاصة فتراته الأخيرة، سيلاحظ صعوبة الرصد والتوثيق، ويرجع ذلك أولا إلى أن الواقع الإقتصادي ووضع القطاعات لم يسر على وتيرة واحدة بفعل التغيرات السياسية الدورية التي كانت تضرب الإنتاج، وتغير بالتالي من موازين السلطة السياسية والتنافس على الهيمنة مما يفضي إلى خلخلة القطاع الإقتصادي عموما. إضافة إلى أن المؤرخين القدامى لم يتركوا الكثير من التفاصيل التي تلقي الضوء على هذا القطاع.

ولا عجب في ذلك، على اعتبار أن العديد من المؤرخين المغاربيين خلال العصر الوسيط وحتى بداية التاريخ الحديث، لم يعنوا بالقضايا الاقتصادية ، مثلما كان الأمر بالنسبة للفقهيات والتراجم، إذ نادرا ما يتم العثور على مؤلف يعالج جوانب اقتصادية تهم الأنشطة الحرفية أو التجارية أو

الزراعية، وتوجد إشارات اقتصادية متناثرة ضمن مؤلفات لها طابع عام، ولا يأتي دور الإقتصاد في إذكاء الصراع إلى عرضا.

ولاغرو، فحتى بعض الباحثين المعاصرين في مجال التاريخ أداروا وجوههم عن القضايا الاقتصادية وأسدلوا ستار الصمت حيالها، وانكبوا جاهدين على مواضيع ذات العلاقة بالسياسة والإيديولوجيا والجوانب العسكرية، اللهم بعض الأعمال التي تحصى على رؤوس الأصابع.

ولا ندعي قصب السبق في هذا الموضوع ولا حتى مجاراته بشكل مستفيض، بل نود طرح بعض الإشكالات ذات العلاقة المباشرة بموضوعنا - أبعاد الصراع في هذا المجال- وإصرارنا على أن الإقتصاد يشكل البعد الأساسي في هذا المخاض.

- الإنتاج والمبادلات التجارية في المجال المغاربي نهاية العصر الوسيط.

يخيل إلينا، أنه لا يمكن بلوغ مراحل إنتاج متميزة وسيولة المبادلات التجارية عموما، إلا بفضل ما يتاح لها من ظروف مادية، كالإستقرار السياسي والانفتاح الاقتصادي والتطور العلمي، والأدوار البارزة في تنشيط الحرف وتوفير الحاجات الاستهلاكية بفعل تنوع الموارد، وتكثير الأسواق العامة والحوانيت المتخصصة، وتسويق الإنتاج الذي تعدد في هذا المجال ونذكره كاتالي:

- الصوف، يعد أقدم مادة نسيجية في البلاد، وكان المجال المغاربي أول مجال منتج ومصدر للأصواف في منطقة البحر الأبيض المتوسط خلال العصور الوسطى، وذلك نتيجة لانتشار تربية الأغنام على نطاق واسع كما أشار إلى ذلك موريس لومبارد.

- القطن: من أصل هندي، أدخل إلى المغرب على يد الفاتحين العرب وانتشر فيه بسرعة في الجهات ذات التربة الطميية والغزيرة بالمياه.

- الكتان: كانت تمارس زراعته في الأراضي الغربية السقوية، وكان مجاله الحيوي يوجد في منطقة جغرافية مثلثة في "المغرب" وهي مكونة من سلا ومكناسة، فاس، هذا بالإضافة إلى جهات ثانوية مثل أودية الريف الغربي و"الأطلس المتوسط" الشمالي.

إضافة إلى الحناء والنيلة التي أدخلت من الهند إلى المجال بعد الفتح الإسلامي، وهي تحتاج إلى الحرارة والسقي، لهذا فإن موطنها كان يوجد في سوس والواجهات الصحراوية على إمتداد هذا المجال، وليس من الغريب أن يصف ابن الخطيب مدينة سبة بكونها "صنعاء الحلل الحسان"،



حيث كانت تتوفر على سوق خاص بمحلات النساجين وعلى قيسارية (سوق الأثواب) خلف الجامع الأعظم.

أما المنطقة الغربية للمغرب الأوسط فكانت تعرف بـ "بلد الأغنام" لأنها تشكل مجالا حيويا للعديد من القبائل الرعاة الذين ينتقلون بقطعان غنمهم بين الشمال والجنوب، ويتخذون من تلمسان ووجدة سوقا لبيع الأصواف. أما فاس خلال نهاية العصر الوسيط فكانت "عاصمة النسيج" بدون منازع، إضافة إلى أن السلاطين المرينيين أحدثوا بها، دار الطراز وهو معمل متخصص في إنتاج المنسوجات والخيام والملابس.

ونفس الشيئ يقال في حق أغمات والقيروان وغيرها، فقد ذكر الإدريسي أن سوق "ريغة" كان يباع فيها ويشترى وتقضى منها الحوائج، وكذلك الشأن بالنسبة لحصن تاكلات وسوسة منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي، واللافت للنظر أن جل هذه الأسواق على امتداد المجال كانت جد منظمة جدا، بل وحملت أسماء بعض القبائل المشرفة عليها كسوق هوارة وكتامة ومغراوة وصفاقس والبصرة وطرابلس، وسوق اليهود..، وما رافق ذلك من تخصيص فنادق أو خانات لخدمة تجار السلع، وخاصة في الحواضر الكبرى على امتداد المجال المغاربي .

ومن خلال النصوص المتوفرة- على ما يبدو- نستشف أن التجارة تضررت بفعل الغارات والحروب التي كانت على هذا المجال. وفي هذا الصدد تذكر بعض المصادر،أن الأمير المريني أبا بكر نزل بعسكره بجبل زرهون، وقد دعا أهل مكناسة إلى مبايعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص، وكان يومئذ صاحب إفريقية " تونس" بل حاصرالمدينة وضيق على أسواقها بمنع المرافق وترديد الغارات.

ومن الدلائل على التدهور الذي عرفته التجارة في هذه المرحلة، ما يذكره ابن غازي عن جباية العديد من المدن. فعند ما يتحدث عن جبايتها في عصرالموحدين، يشيد بقوتها وازدياد قدرتها، لكن حين يصل إلى الفترة الإنتقالية هاته يقول " ثم تفاقم الأمرعند قيام بني مرين على الموحدين" وهي عبارة صريحة توضح مدى التدهور الاقتصادي الذي عرفته الدولة الموحدية المغاربية في مراحلها الأخيرة.

ولعل مايؤكد حجم الفوضى السياسية وتأثيرها المباشرعلى العمليات التجارية والاقتصاد عموما هو ما ذكره أحد المؤرخين، أن سكان إحدى المدن، وهي مكناسة في أواخر العصر الموحدي أصبحوا يؤدون إتاوة لبني حمامة، وهي ضريبة ابتلوا بها دون مبرر، وعندما وصل الأمير

المريني عثمان بن عبد الحق إلى مكناسة، ألزمهم أداء أموال معلومة يؤدونها في كل سنة، على أن يؤمن بلادهم ويرفع عنهم الغارات، ويدفع عنهم أذى من كان يؤذيهم من القبائل.

بيد أن هذه الوضعية لم تستمر طويلا، فما أن صلب عود الدولة المرينية وتأصلت جذورها في الحكم والسلطة داخليا وجنحت للسلم السياسي مع باقي مكونات هذا المجال على المستوى الخارجي، حتى بدأت فترة من الاستقرار السياسي، ومن الطبيعي أن يفرز هذا الإستقرار ازدهار على الصعيد الإقتصادي بما في ذلك التجارة.

وقد ساهم في هذا الازدهار، السياسة الإصلاحية التي نهجها المرينيون الأقوياء، من أمثال أبي الحسن وأبي عنان، فالمصادر تذكر أن الأول أسقط كل الضرائب اللاشرعية من مكوس وقبالات وغيرها بغية تنشيط العملية الاقتصادية.

كما ألغى ضريبة كانت تفرض سابقا على التجار المتجولين، وبالمثل أزال عن الرعية ضرائب أخرى ساهمت في إغناء والرفع من طاقتهم الشرائية، ولم يبقي سوى على الضرائب الشرعية.

ولا تعوزنا الأدلة عما قام به السلاطين المرينيون، من تشجيع للمبادلات الخارجية إذ عقد أبو الحسن سنة **739هـ/**، معاهدة سياسية تجارية في قلب تلمسان وكذلك مع وفد ميورقة، كما عقد أبو عنان معاهدات صلح مع البرتغال، وبعض الإمارات النصرانية في شمال إسبانيا، إلا أن الصراع الذي ظل مشتعلا بين الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط أضر سلبا على هذه التجارة وعلى وضعية المجال المغاربي على المستوى الدولي، وخاصة في علاقته مع الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

ويبدو أن الإنتاج المعدني ظل حاضرا بقوة خلال المرحلة المدروسة، ودليلنا في ذلك أن الملح المعدني كان من أهم البضائع المصدرة إلى السودان الغربي حيث انعدمت مناجمه، وكان يستخرج تحديدا من تغارى الواقعة على الطريق التجاري سجلماسة – ولاتة ، إضافة إلى معدن النحاس والذي تحدث عنه العمري خلال القرن الرابع عشر.

هذا ويمكن أن نضيف إلى كل ما ذكرناه، المنتوجات الفلاحية كالقمح والفواكه المجففة والخيول، التي كان يتم تصديرها من المجال المغاربي إلى السودان الغربي، مع التأكيد على التوازن في الوجود التجاري بين كل دول هذا المجال في إطار تنشيط اقتصاد الوساطة، وخاصة إلى حدود منتصف القرن الرابع عشر(م)، والدليل على ذلك أن مدينة "ولاتة" مثلا والتي كانت أهم مركز قوافلي في شمال السودان الغربي، كان يقيم فيها "ذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد، من

أهل مصر وفزان وغدامس وتوات "المغرب الأوسط" ودرعة وفاس وسوس"المغرب الأقصى"، والتي انتظمت في اطار طرق تجارية متكاملة اعتبرت شريان حياة المجتمع المغاربي بشكل كلي، بل اعتبرت أساس تنظيم المجال وإعادة تنظيمه باستمرار،بما يوافق مصالح القوى الحاكمة، وقد أنتجت أهمية الطرق في التاريخ المغاربي صراعا سياسيا واجتماعيا صارخا، وخاصة في مراحل الأزمات السياسية التي مرت بها الأنظمة الحاكمة، وصامتا على امتداد المجال سلما وحربا.

ويبدو أن هذه الخطوط العريضة للبحث والتأمل، أتاحت لنا إمكان التنقيب على بعض الخصائص المشتركة بين أطراف المجال المغاربي، والذي سيتعرض بدوره إلى العديد من التعقيدات والمشاكل الذاتية والموضوعية.

الهوامش

أنظر سمير أمين: **"التطور اللامتكافئ: دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطة"**، ترجمة برهان غيلون، ط 4، بيروت، دار الطليعة 1985.

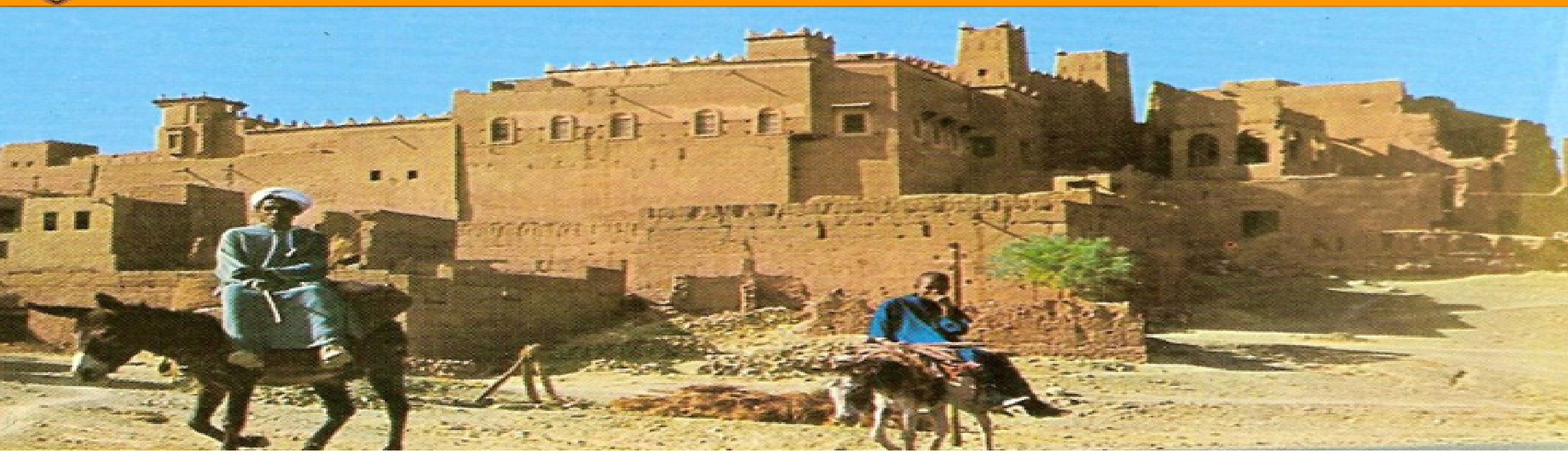
وكذلك مهدي عامل: **"مقدمات نظرية"** وخاصة الجزء الثاني تحت عنوان في نمط الإنتاج الكولونيالي، دار الفارابي بيروت، ط 5، 1986.

-Driss Ben Ali : « **Le Maroc précapitaliste (Formation économique et sociale) société marocaine des éditeurs réunis** –Rabat- 1983.

[1] - للمزيد من التفصيل راجع، فاطمة بلهواري: **" التكامل الإقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط"** منشورات الزمن ،ع11، 2010.



تاريخ المغرب المعاصر







المغرب المعاصر :بين حركة الفداء وتوافقات إكس ليبان. ـ الجزء الثاني

خالد أوعسو
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

II-انتقال المقاومة إلى البوادي وإنشاء جيش التحرير وردود الفعل الفرنسية.

كانت سلطات الحماية تعتقد أن المقاومة وليدة المدينة ، وأن البادية ظلت مخلصة لابن عرفة وحلفائه من الاقطاعيين (الكلاوي مثلا)، لكن سرعان ما تهشمت هذه الثنائية أمام صخرة الواقع، وحلت محلها ثنائية من نوع آخر : مغاربة / فرنسيون وعملائهم ، وأضحت البادية هي الأخرى – إلى جانب المدينة-مرتعا خصبا لأعمال المقاومة ، خصوصا مع سنة 1955. وكانت ذكرى نفي السلطان تشكل محطة وطنية لتصعيد عمليات المواجهة مع المستعمر حيث كان قاطنو المناطق القروية يتخذون من بعض المراكز قواعد أمامية للتعبير، وبطريقة عنيفة، عن يأس السكان من مخططات الاستعمار[18].

[18]-روم لاندو، م.س، ص:474-475.



1-أهم عمليات المقاومة بالبوادي

أ-أحداث خنيفرة وخريبكة: لقد عرفت المدينتين انتفاضة شعبية مع حلول الذكرى الثانية لنفي محمد الخامس ، حيث سيعمد المتظاهرون الذين بلغ عددهم عشرات الآلاف إلى ترديد الهتافات المطالبة بالاستقلال.

فبمدينة خنيفرة التي عرفت الانتفاضة يوم 18 غشت 1955 لم تتمكن القوات الفرنسية المرابطة بالمنطقة من السيطرة على الموقف إلا لبعض الوقت ، حيث سيتم إعدام بعض "المتورطين" في الأحداث في الغد، الشيء الذي زاد من غضب المتظاهرين الذين أتوا من مختلف مناطق الأطلس . وقد تم تعزيز القوات الفرنسية بالمنطقة بعدة فيالق من القوات البرية والمظليين، فكانت الحصيلة النهائية مقتل 3 من المظليين الفرنسيين و 12 مغربيا ، بالإضافة إلى جرح شرطيين[19].

وبمدينة خريبكة التي بدأت بها الانتفاضة من السوق الأسبوعي في اتجاه المدينة الأوربية، فإن الوضع استمر في الغليان إلى غاية 21 غشت 1955، بعدما تم تخريب منشآت تابعة للمكتب الشريف للفوسفاط (إحراق مستودع الخشب)، وقد خلفت الأحداث عدة قتلى في صفوف الفرنسيين والمغاربة على حد سواء، ولم يتم السيطرة على الوضع إلا مع حلول الثانية عشرة والنصف مساء[20].

ب -أحداث آيت عمار: لقد تكرر المشهد نفسه الذي حدث بكل من خنيفرة وخريبكة بمنطقة ايت عمار، حيث قام المتظاهرون الذين أتوا من البادية بهجوم على منجم الحديد بالمنطقة وكانت الحصيلة المؤقتة لهذه الأحداث ، بعد تدخل القوات الفرنسية 13 قتيلا[21].

ج -أحداث واد زم: انطلقت أحداث واد زم في ظرف داخلي تميز بتصاعد المد الوطني، والذي أخذ يعبر عن نفسه بمختلف الأشكال الاحتجاجية، هكذا ستقوم القبائل المجاورة لواد زم كالسماعلة وبني خيران ...بتنظيم زحف جماعي على المدينة بعدما قاموا في طريقهم بتخريب مزارع المستعمرين، وبمجرد وصولهم للمدينة انظم إليهم ساكنة واد زم في جو حماسي ، حيث أخذوا يرددون شعارات المطالبة بالاستقلال لتزداد حدة التوتر بالمدينة بعد قيام العدد الضئيل من الجيش المتواجد بالمدينة بالتصدي للمتظاهرين ، حيث سيتم إضرام النار في ممتلكات المعمرين، كما سيتم قتل عدد كبير منهم داخل الحي الأوربي من بينهم مساعد المراقب المدني "كاريول"، كما تم الهجوم على

[19] -Pierre july, une république pour un Roi, les grandes études contemporaines, Fayard, 1974, p : 167-168.
[20] - le petit Marocain 22 Aout 1955.
[21] Le Petit Marocain, 21 Aout 1955.

المستشفى الرئيسي ، حيث قتل الطبيب "فيسباشير"[22]. ولما كان عدد القوات ضئيلا (لا يتعدى 206 بين الدرك والمخازنية)، بالمقارنة مع عدد المتظاهرين الذين فاق عددهم 16 ألفا ، عملت فرنسا على استقدام قوات إضافية من فاس ومن المناطق القريبة قصد السيطرة على الوضع ، وقد ظلت الإمدادات تصل إلى غاية التاسعة ليلا [23]، لتكون الحصيلة النهائية 60 قتيلا من بينهم 49 اوربيا[24]. وقد استمر الوضع في الغليان طيلة أيام 20-21-22 غشت بكل من واد زم والنواحي ، حيث ستعرف قصبة تادلة مقتل ثلاثة صحفيين [25].

لقد كان لحوادث واد زم وخنيفرة تأثير كبير على الطرفين المغربي والفرنسي، خاصة وأن الأحداث صادفت انطلاق مفاوضات إيكس ليبان، حيث صرح "إدغار فور" في تعقيبه على ما وقع :" لقد كان يوم 20 غشت بالنسبة للمغرب وفرنسا يوم محنة كبيرة بمدينة خنيفرة وواد زم خاصة، حيث تمت عمليات من الرعب والهمجية"[26]. كما ركزت الصحف الفرنسية على "وحشية" انتفاضة واد زم ووصفتها بالمعارك الحقيقية : " لقد كانت معارك واد زم بحق معارك طاحنة خلفت عددا ثقيلا من القتلى"[27] . أما محمد اليزيدي ، فقد عبر باسم حزب الاستقلال عن أسفه عن الأحداث " التي أضرت بالصداقة الفرنسية المغربية" ، وناشد "بتغليب الحكمة على الغضب"[28].

د- حصيلة حركة الفداء بالبوادي: لقد ساهمت البوادي المغربية شأنها شأن المدن في حركة الفداء التي عمت المغرب، وإن تأخرت عنها نسبيا فيما يخص عمليات المقاومة (إلى غاية 1955 عمليا)، إلا أنها تميزت بالعنف والحدة ، ونظرا لتضارب الأرقام حول هذه الحوادث، فإنه يستعصي القيام بإحصاء دقيق لعدد الضحايا ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه الحوادث عرفت حدتها مع غشت 1955، أي مع انطلاق مباحثات إيكس ليبان ، مما يصعب معه ضبط الأرقام الحقيقية لهذه الحوادث لكون كل طرف كان يقدم رقما معينا قصد التأثير على المفاوضات وتعزيز موقفه السياسي. وكمثال على ذلك نشير إلى أن الاحصائيات الفرنسية في تناولها للأحداث التي عرفها المغرب في غشت 1955 تتحدث عن 700 قتيل ، بينما مصادر حزب الاستقلال تتحدث عن آلاف القتلى [29]. وهنا لابد من الإشارة إلى أن "ميكل مرتين" قد تحدث هو الآخر عن حصيلة الأحداث بقوله "انتهت الذكرى الثانية لنفي الملك بقرابة 1400 قتيل ، وأعلنت حالة الحرب

---

[22] - Pierre July, op.cit,p :171,   Aussi   الاتحاد الاشتراكي 20غشت 1996
[23] C . A. Julien , OP. Cit, P : 434-435.
[24] -Ibid, P : 4334 .
[25] -Ibidem
[26] -le Petit Marocain 21 aout 1955.
[27] - Le Monde 23 Aout 1955.
[28] -Le Monde 9 septembre 1955.
[29] - C .A Julien, op.cit, p :435.

في الدار البيضاء...ومات ريمون ديفال قائد جيوش الاحتلال الفرنسي نتيجة عملية اغتيال، ولم يكن 140.000 جندي كافيا وتم استدعاء 60.000 من الاحتياطيين[30].

انطلاقا من الأحداث التي تمت الإشارة إليها نستشف ان حركة الفداء بالبوادي قد حصدت من ورائها مئات القتلى والجرحى في صفوف الأوربيين (الفرنسيين خاصة) والمغاربة على حد سواء، بالإضافة لأعمال النهب والتخريب ، ومهدت الطريق بذلك لانطلاق عمليات جيش التحرير.

2-إنشاء جيش التحرير:

بدأت التنظيمات السرية لتكوين جيش التحرير من أبناء البادية منذ سنة 1953، واستمرت هذه التنظيمات في تعيين مؤسسي ومسيري فرق هذا الجيش بواسطة "محمد بن عمر بويفادن"، إلى جانب مجموعة من المقاومين[31].ثم بدأت بعد ذلك أولى خطوات التنسيق مع المقاومة الجزائرية بميلاد "الجنة التأسيس لجيش تحرير المغرب العربي"، نص ميثاقها على تكوين مراكز سرية للتدريب بالمغرب الشرقي وعلى كيفية توزيع السلاح[32]، وقد استفاد جيش التحرير كثيرا من انضمام عدد من قدماء المحاربين في صفوف الجيش الفرنسي إبان الحرب العالمية الثانية، حيث استثمر تكوينهم وخبرتهم ومعرفتهم الجيدة بتسيير العمليات العسكرية. وقد ساهم الدعم العسكري والفني لدول الشرق الأوسط (خاصة مصر) في بناء نواة صلبة لهذا التنظيم[33]. وكان من المفروض ان يقوم جيش التحرير المغربي بأولى العمليات مباشرة بعد اندلاع الثورة الجزائرية ، إلا أن أمر انكشاف تنظيما ت جيش التحرير للسلطات الفرنسية وإلقاء القبض على بعض العناصر[34] ، وفرار البعض الآخر إلى مناطق الصحراء حال دون انطلاق عمليات جيش التحرير إلى غاية 2 اكتوبر 1955[35].

لقد كان اكتشاف تنظيمات جيش التحرير ضربة قوية للسلطات الفرنسية التي وجدت نفسها أمام الأمر الواقع ، حيث ستسارع – بعد أن تظافرت عوامل أخرى داخلية وخارجية-إلى فتح مفاوضات مع الحركة الوطنية المغربية.

---

[30]-ميكل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب1860-1956، ترجمة عبد العزيز الوديي، منشورات التل ،الرباط ،ط1988،1، ص:196
[31]-الصنهاجي، م.س، ص:270.
[32]-نفسه،ص:159-160.
[33]- وهنا نشير إلى الدور الذي قام به بوضياف أحد رموز المقاومة الجزائرية في جلب الأسلحة من مصر . انظر:االصنهاجي،م.س،ص:138.
[34]-كما حدث للشهيد العربي بلمهيدي، انظر الصنهاجي، ص:270.
[35]-الصنهاجي، ص: 270-273.



3-ردود الفعل الفرنسية:

لقد تميزت الوضعية الداخلية بالمغرب بين سنتي 1953و1955 بمحاولة فرنسا اجتثاث المقاومة المسلحة بالاعتماد على أجهزتها الأمنية ، وأمام فشل هذه المحاولات سيعمد ثلة من الاستعماريين على تنظيم شبكات إرهابية للتنكيل بالوطنيين ومسانديهم من الفرنسيين.

أ-عمليات القمع البوليسي: تصدت فرنسا لتصاعد عمليات المقاومة بأعمال القمع والاعتقالات المصاحبة بالتعذيب والمحاكمات الصورية ، بل حتى الاختطافات [36] ، هكذا عززت حضورها باستقدام قوات إضافية من فرنسا والهند الصينية والمستعمرات الإفريقية ، كما عملت على تنظيم أجهزة الأمن خصوصا بالمدن الكبرى لتكون أكثر فعالية ضد المقاومة الوطنية[37]، حيث كانت اعتقالات المشتبه فيهم يومية ، كذلك فإن عمليات التفتيش في الأحياء كانت أكثر حدة بعد كل عملية فدائية ، وكان يساق المعتقلون إلى مراكز البوليس لتمارس عليهم مختلف أشكال التعذيب تصل حتى الموت، مثلما وقع لعلي السباعي في أكتوبر 1954، حيث سيلقى حتفه بمراكش نتيجة التعذيب الوحشي داخل مخافر الشرطة ، وكان قد اتهم بتوزيع منشورات معارضة لفرنسا ، أيضا ما وقع للمقاوم ادريس بن قدور الحريزي المتهم باغتيال الدكتور"إيرو" أحد دعاة الاستعمار بالمغرب[38] . وقد كان المعتقلون يكدسون في حجرات ضيقة تنعدم فيها أبسط شروط الحياة ، مما كان ينتج عنه حالات من الاختناق تتزايد نسبتها مع فصل الصيف مثل ما وقع لمعتقلي أحداث وجدة (اواخر غشت 1953)، حيث سيلقى 14 شخصا حتفهم نتيجة الاختناق[39]، أيضا ما وقع بالسجن المدني بالبيضاء ، حيث سيختنق مجموعة من المقاومين بعد أن ألقت الشرطة القنابل المسيلة للدموع في حجرات السجناء لمواجهة حركة الإضراب عن الطعام التي كانوا يقومون بها لتحسين ظروف اعتقالهم[40] .

بالإضافة إلى أعمال القمع والاعتقال التعسفي أقدمت سلطات الاستعمار على طبخ مجموعة من المحاكمات بهدف تجريم أي عمل يستهدف الوجود الفرنسي لدرجة أن المغرب أضحى "كله أشبه ما يكون بمجموعة من معسكرات السجون" [41]، هكذا تم تقديم مجموعة من الفدائيين للمحاكم العسكرية - بعدما كان الأمر سابقا يتعلق بمحاكم الباشا والقواد- التي فتحت أبوابها لمحاكمة

---

[36]- الورديغي، م.س، ص: 83-97 ايضا:116-123.

[37]-نفسه،ص:84.

[38]-نفسه،ص:117-118.

[39] -Jean Charles Le Grand, justice patrie de de l'homme défenses devant les tribunaux militaire du protectorat 1953-1955, Rabat, Presse d'inframar 1960, p : 219.

[40]-الورديغي، ص: 121.

[41]- دوغلاس أشفورد، التطورات السياسية في المملكة المغربية، ترجمة عائدة سليمان عارف و عبد الهادي بوطالب، بيروت،مؤسسة فرانكلين للطباعة 1963، ص:106-107.

الوطنيين بتهمة المساس بأمن الدولة الداخلي والخارجي[42] ، حيث أصدرت أحكاما قاسية وصلت في كثير منها حتى الإعدام ، وكمثال على ذلك المحاكمات العسكرية الشهيرة للدار البيضاء –فاس- مراكش-وجدة-الرباط....والتي توبع فيها جماعات من المقاومين المغاربة صدر على أغلبهم الحكم بالإعدام[43].

كما نهجت فرنسا أسلوبا جديدا، بموازاة مع عمليات القمع والاعتقالات والمحاكمات القاسية، تمثل في اختطاف مجموعة من الوطنيين لبث الخوف في صفوف المقاومة بهدف الحد من العمليات الفدائية التي كان يقوم بها المغاربة [44] .

كما لجأت السلطات الاستعمارية إلى نهج أسلوب النفي للحد من تصاعد أعمال المقاومة كما وقع بالنسبة لقدور الورطاسي وعمرو الوكوتي[45].

ورغم كل هذه الأساليب ، فإن المقاومة استأنفت نشاطها ووسعته، مما دفع ببعض الاستعماريين – أمام فشل كل المحاولات الرامية إلى وقف العمليات الفدائية – إلى تنظيم خلايا إرهابية كمحاولة للقضاء على المقاومة عن طريق ضرب المتعاطفين معها سواء من المغاربة أو الفرنسيين.

ب-إرهاب المستوطنين: كانت تتشكل قاعدته الجماهيرية من بعض السكان الأوربيين ، وكان يجد حماية من طرف السلطات الاستعمارية ورجال الأمن –بل مشاركة فعلية- لذلك تمكن من التنظيم، بل توجيه الضربات دون رادع.

وقد ارتبط بداية "الإرهاب الأوربي" بشخصية الكولونيل"مرسيل مرسيي"[46]، وقد كانت هناك منظمتان للإرهاب هما منظمة "الدفاع ضد الإرهابODAT" و منظمة "طليعة الإيديولوجيات الجمهوريةAGIR" التي وجدت في مجموعة من الحركات التي أخذت تتبلور كجماعات للضغط على السياسة الفرنسية المال والأطر. فقد تكونت جماعة للدفاع عن "الطائفة المهددة في وجودها وعملها" تحت رئاسة الدكتور"كوس" ثم تأسست مجموعة أخرى تسمى "الاتحاد المغربي" يرأسها "جاك فاييس" واندمجت الجماعتان مع الجماعة التي كان يرأسها الدكتور"إيرو"، فتولد منهما جميعا "الاتحاد من أجل الوجود الفرنسي"، وأصبح الدكتور "كوس" رئيسه[47] ، وهو يهدف إلى الدفاع عن المصالح الاستعمارية للأوربيين بالمغرب، وكان يحظى بدعم خاص من الأجهزة

[42]- عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ج 2، مطبعة الرسالة، الرباط1987، ص: 633.
[43]- الورديغي،ص:95-96.وقد عرفت هذه المحاكمات مساندة بعض الفرنسيين كالمحامي"ج.ش لوكران" و" بتاي".انظر:غلاب،ص:634-636.
[44] -الورديغي، ص:86. أيضا: C .A.Julien, op.cio,P :347
[45]-الورديغي،ص:86.
[46]-عبد الكريم غلاب،م.س،ص:655.
[47] -Grandval Gilbert, ma mission au Maroc, Paris, Plon 1956, P :69.

الأمنية والعسكرية التي كانت بمثابة المحرك الفعلي لكل العمليات الإرهابية[48]. وقد اندمجت بعد ذلك هاته الجماعة مع مثيلاتها في كل من الجزائر وتونس فأعطت "لجنة إفريقيا الشمالية ضد الإرهاب"، واتخذت صبغة شبه دولية خاصة وأنها تضم عددا من الإيطاليين والإسبان ، وقد كان أصحاب المصالح والإداريون والعسكريون "كاميل روش" و "بونيفاس" و " الجينرال كونيج" يشكلون القاعدة البشرية لهاته التنظيمات[49].

وقد ازداد نشاط حركة "الإرهاب المضاد" في الوقت الذي اشتد فيه نشاط الليبراليين الفرنسيين والوطنيين المغاربة، وكان أنصارها يستعملون القنابل والرصاص في عدد من عملياتهم التي كانت عادة تستهدف شخصيات بارزة كاغتيال المحامي "عمر السلاوي"(في 30 يوليوز 1954) و "انطوان مازيلا" (يوم 11 اكتوبر 1954) ثم "كوران" (في 29 اكتوبر 1954)، ايضا الدكتور "عبد الرحمان السبتي"، وبعد ذلك التاجر "الطاهر السبتي"(في 2يناير 1955) الذي كان صديقا لكل من "لوميكر" و "ناطاف"، لكن أخطر عمل قاموا به هو اغتيال "جاك لوميكر دوبروي"(يوم 12 يونيو 1955) وقد كان من انشط الليبراليين الفرنسيين، وكان يعبر عن موقفه في جريدة Maroc presse التي كانت تفضح الإرهابيين وتدافع عن براءة أقلية من الأوربيين الليبراليين ، مما عرضها في أغلب الأحيان للحجز[50].

وقد هز هذا الاغتيال فرنسا كلها وكون حدثا أساسيا في تطور السياسة الفرنسية بالمغرب، مما دفع برئيس الوزراء الفرنسي "إدغار فور" لإرسال مدير إدارة التراب الوطني "ويبو" ليفتح تحقيقا حول هذه القضية ، لتكون النتيجة إقالة المقيم العام "لاكوست"، وكان متعاطفا مع الليبراليين الفرنسيين وتعويضه بالليبرالي " جيلبرت كراندفال" في 20 يونيو 1955. واثناء مغادرة "لاكوست" للمغرب كتب ما يلي إلى جمعية "الصداقات المغربية-الفرنسية"....."إنني أتأسف على إعفائي من مهمتي في الوقت الذي قررت فيه باريس أن تعطي حرية التصرف لممثليها، هذا الشيء الذي كان مرفوضا فيما مضى"[51].

أثناء مباشرة "كراندفال" لمهامه عمل على إقصاء الكثير من كبار الموظفين الفرنسيين ونجح في إلقاء القبض على بعض الإرهابيين الفرنسيين في الأسبوع الأول من وصوله للرباط ، وكان أكثر

---

[48] -Ibid, P : 70.

[49]- غلاب، م.س، ص:656-668. أيضا: دوغلاس أشفورد،م.س،ص:107.

[50] - La vigie Marocaine, 7 Janvier 1955. ايضا : غلاب، ص: 662.

[51] -Nataf Félix, L'indépendance du Maroc (Témoignage d'action) 1950-1956 ,Paris, Plon 1975, P :164.

هؤلاء من رجال الأمن، كما قام بطرد رئيس حركة "الوجود الفرنسي" وحاول أن يضع الشرطة تحت رقابته[52].

وبسبب هاته الإجراءات واجه "كراندفال" سخط الأوساط الاستعمارية ، وقد زاد انفجار قنبلة بمرس السلطان بالدار البيضاء (14يوليوز1955) والذي أودى بحياة 5 فرنسيين[53]، إلى زيادة معارضة سياسة المقيم العام الجديد، حيث سيعترض سبيله جموع من المستوطنين أثناء حضوره للصلاة على ضحايا القنبلة من الفرنسيين . وبعد خروجه من السيارة في اتجاه سيارته "بصقوا في وجهه وأطلقوا عليه أسماء: خائن وسفاح..."[54]، وبعد أحداث 14يوليوز قامت منظمات المستوطنين بتوزيع مناشير تحمل عبارات "أن اليهودي المارق... المعروف بكراندفال شريك المجرم ...المعروف باسم منديس فرانس ، جاء ليبيعا المغرب كما باعا تونس من قبل، ولقد أذقتموهما مرارة القوى التي لا تغلب لشعب جرحت كبرياؤه . إننا ندعوكم للاستعداد كي تستجيبوا لأول نداء لتحرير وطننا الثاني بالقوة إذا دعت الحاجة ، سيضطر بعض أولئك المسؤولين لدفع ثمن إجرامهم حالا"[55].

لقد أظهرت هذه الأحداث تواطؤ البوليس مع الاستعماريين ، تجلى ذلك في عدم توفير أدنى شروط الحماية لموكب كراندفال أثناء تشييع جنازة ضحايا مرس السلطان ، وهو ما حدا بصحف باريس إلى الإعلان صراحة عن اشتراك البوليس والاستعماريين في جرائم القتل ضد الفرنسيين الأحرار[56].

لقد كانت "حركة الإرهاب المضاد" رد فعل ضد نجاح المقاومة الوطنية وضد المنحى الجديد الذي بدأت تأخذه القضية لمغربية حيث بدأت تلوح في الأفق بوادر حل سياسي –ولو ظرفي – للمشكل المغربي ، فكان هذا الاتجاه العام الذي بدأت تأخذه القضية المغربية من شأنه أن يذكي حقد الفئات المعارضة لأي تغيير في وضعية المغرب، خاصة مع العجز في الوقف الجزئي لنشاط المقاومة الوطنية ، التي بدأت تأخذ اشكالا تنظيمية أرقى وأصبحت تجلب تعاطف وتضامن مجموعة من البلدان والمنظمات الدولية.

---

[52]- دوغلاس أشفورد، م.س، ص: 109.

[53]- غلاب،م.س،ص:690.

[54] -Le Monde 19 Juillet 1955. أيضا: غلاب،م.س،ص: 690

[55] - Le Monde 19 Juillet 1955.

[56]- دوغلاس أشفورد، م.س،ص:109.









تاريخ الجنوب المغربي و تثمين الأرشيف الشفهي:قراءة في قضايا المفهوم والمنهج



محمد أبيهي
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

مقدمة عامة:

يزخر الجنوب المغربي بمقومات حضارية وتراثية، تتجسد في غنى الأرشيف الشفهي المحلي، الذي ظل حبيس الرواة وشيوخ القبائل في المجالات الهامشية، وتأتي أهمية استحضار الأرشيف الشفهي، لإظهار كل جانب مسكوت عنه في الذاكرة المحلية للإنسان، نظرا لدورها الفعال في إعادة الاعتبار لمكون التراث اللامادي في شتى أشكاله التعبيرية والأدبية والفنية، وكذلك لكون الأرشيف الشفهي مصدرا تاريخيا أصيلا لكتابة التاريخ المحلي، من أجل الانتقال به من المقاربة التداولية العاطفية إلى المقاربة العلمية الرصينة.

وظل استخدام التراث الشفهي حبيس الثقافة الشعبية، ومازال استثمار مواده في البحث العلمي، تعترضه الكثير من الصعوبات المنهجية والابستمولوجية، على خلاف المدارس الأمريكية والفرنسية التي قطعت أشواطا في توظيف الأرشيف الشفهي في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

من خلال ما سبق، ارتأيت من هذا المقال إثارة الأهمية العلمية للأرشيف الشفهي في الدراسات التاريخية والاجتماعية، والانتقال به من المقاربة التداولية العاطفية إلى المقاربة العلمية الرصينة، ووضع إطار منهجي عام حول الشروط العلمية لاستثمار الأرشيف الشفهي لتاريخ الجنوب المغربي، للوصول إلى خلق قاعدة بيانات معلوماتية للأرصدة الشفهية وتصنيفها حسب الحقول المعرفية للعلوم الإنسانية. ما هو مفهوم التاريخ الشفهي؟ هل يمكن اعتبار الأرشيف الشفهي مصدرا تاريخيا؟ وكيف يمكن أن ترقى الذاكرة الشفهية إلى تاريخ موضوعي؟ أين تكمن أهمية التاريخ الشفهي في دراسة تاريخ الجنوب المغربي؟ وما هي الأسس المنهجية الكفيلة لتثمينه في الدراسات التاريخية المعاصرة؟

1-.مقاربات نظرية لمفهوم التاريخ الشفهي

أ-.مفهوم التاريخ الشفهي:

يقصد بالتاريخ الشفوي تسجيل وتدوين المعلومات التاريخية وتدوينها، ويتم الحصول عليها من خلال مقابلة شاهد عيان أو معاصر لأحداث تاريخية، وذلك بمراعاة البعد الموضوعاتي في تدوين الرواية الشفوية، ويتجلى في مخلفات الإنسان من المأثورات الشفاهية من قصائد شعرية محلية متوارثة، وروايات العيان الذين عاشوا الأحداث أو سمعوا عن تفاصيل الحدث التاريخي،وبما أن مصدر الرواية الشفوية هو الذاكرة المحلية، فهي عملية إعادة عناصر أحداث الماضي وتنقيحها منهجيا.[57]

يذكر عبد الله العروي أن المرويات مكونة من مفردات وتراكيب لغوية، وأن الشفوي يرتبط بفترة معينة من الزمن وبظاهرة ملازمة للإنسان.[58] يرجع الاهتمام بالتاريخ الشفهي إلى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تبنت جامعة كولومبيا مشروعا لتوثيق الذاكرة الشفهية الذي يرمي إلى جمع وتصنيف الأرشيف الشفهي للشخصيات الأمريكية، ويعرف (Joutard)التاريخ الشفهي في كونه بحث المؤرخ في المروي بكيفية منظمة،انه مفهوم مقتبس عن الباحثين الأمريكيين اللذين كانوا سباقين لإعادة الاعتبار للنص الشفهي كمصدر تاريخي أصيل،[59] حيث اتجهت الجامعات الأمريكية إلى دعم مشاريع بحتية متعلقة بجمع الأرصدة الشفهية للمدن من خلال استجواب المسنين

---

[57] فانسينا يان،المأثورات الشفاهية،دراسة في المنهجية التاريخية،ترجمة ودراسة أحمد علي مرسي،القاهرة،دار الثقافة،1981،ص16.

[58] **عبد الله العروي،مفهوم التاريخ،المركز الثقافي العربي،الطبعة الخامسة،2005م،ص:100.**

[59] Joutard,Histoire orale,in dictionnaire des sciences Historiqeues,sous la direction de André Burguiére,Paris,1986.

وتدوين مروياتهم الشفهية،[60] وحققت المدرسة الفرنسية تطورا هائلا فيما يخص الاعتماد على المصادر الشفهية في دراسة تاريخ المؤسسات والمدن.[61]

يشمل التاريخ الشفهي كل التعبيرات اللغوية:الأسماء والأعلام والشواهد الشفهية:القصة،الأمثال،الحكايات والأساطير والوقائع التاريخية الشفوية، وهو توجه جعلت منه المدرسة الأنجلوساكسونية مصدرا مهما في الدراسات التاريخية للثقافات الغير المكتوبة في أمريكا الشمالية وإفريقيا، كما اعتمدته فرنسا بالمغرب لرصد الأوضاع السياسية والاجتماعية من خلال الاحتكاك الوثيق بالثقافات المحلية وأرصدتها الشفهية، وحققت نتائج هامة لصالح البعثة العلمية الفرنسية بالمغرب.

-2.الإنتاج الاثنوغرافي الاستعماري واستثمار الذاكرة الشفهية المحلية:

نتج عن الاحتلال الفرنسي للجزائر تطور في البحث السوسيولوجي الكولونيالي الفرنسي في شمال إفريقيا، حيث أسست في سنة 1870م مدرسة للآداب بالجزائر العاصمة تحت إدارة ريني باسي(Renne Basset)، وتأسست البعثة العلمية بالمغرب في سنة 1903م لينطلق بذلك مسلسل التغلغل الاستعماري، حيث حدد ميشو بلير المدير الثاني للبعثة العلمية سنة 1907م هدفها، الذي يتمثل في دراسة النظام الاجتماعي والسياسي للمغرب بواسطة جمع المعلومات الشفوية وتقاليد القبائل ومؤسساتها الدينية،[62] وأبرز ميشو بلير(Michaux-Bellaire) أهمية هذا المشروع في بناء عمل جماعي يعود نفعا على السياسة الأهلية،[63] وانصبت جهوده على إعداد مونوغرافيات حول المغرب، التي شملت إعداد مؤلفات وكتب من قبيل أرشيفات المغرب، ومجلة العالم الإسلامي.[64]

اعتمدت الرحلات والبعثات الفرنسية بالمغرب قبل الحماية على إنجاز أبحاث استكشافية، هدفت إلى التقاط سريع للمعلومات حول أوضاع المغرب في إطار مهام استطلاعية، ومثلت هذه الدراسات الأطماع التوسعية للرأسمالية الفرنسية التي روجت لفكرة احتلال المغرب انطلاقا من أسس علمية، لذلك بادرت إلى تعيين علماء لسانيين وسوسيولوجيين وجيولوجيين وجغرافيين لأجل

[60]Oral History, Vol. 6, No. 2 (Autumn, 1978), p. 35,Stable URL: http://www.jstor.org/stable/40178525, Accessed: 25-01-2016 00:41 UTC

[61]Florence Descamps, Archives orales et histoire des Organisations De l'ingénierie patrimoniale à la valorisation scientifique et culturelle des sources orales, Annuaire de l'École pratique des hautes études (EPHE), Section des sciences historiques et philologiques,P:246 Document accessible en ligne sur : http://ashp.revues.org/440

[62] *Michaux Bellaire,la mission scientifique au Maroc:conférence faite au Cours des affaires indigènes,1925,P :4.*

[63] George Drague, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc,Peyronnet,Paris,1951,P :3

[64]Revue du monde musulman,Mission scientifique du Maroc,1907

دراسة ميادين الضعف والقوة في المجتمع المغربي، حيث أرسل ادموند دوتي إلى المغرب بين سنتي 1900م و 1901م لدراسة المناطق التي لم تتصل بعد بالحداثة الأوربية، من أجل الإعداد لإدماج المغرب في دائرة التأثير الفرنسي، وأسفر عمله عن تقرير بعنوان ‹‹وسائل تطوير التأثير الفرنسي في المغرب 1900م››، وقام كذلك بتكليف من لجنة المغرب(Le comité du Maroc) بخمسة أسفار ورحلات رئيسية دراسية إلى المغرب، مركزا على الحوز ومراكش، مرورا بأزمور، ودكالة، والرحامنة، ونشر كتابه ‹‹مراكش›› سنة 1905م بموافقة لجنة المغرب.[65]

تعتبر الذاكرة الشفوية من بين أهم المصادر المعتمدة في جل الدراسات الكولونيالية حول تاريخ وسوسيولوجية المجتمع المغربي، وخصص الضابط جوستينار(Justinard) حيزا كبيرا للرواية الشفهية في مقاربته للظواهر اللغوية بالجنوب المغربي، وتعلم لغة تاشلحيت بسوس، وأصدر معجما شاملا يضم المرادفات المستعملة في بادية سوس واحاحان،[66] وكتب كذلك عن الأدب الشفهي لسوس، واعتمد جوستينار على تقنية الاستجواب عندما كان ضابطا في الجيش، وساعده في تدوين معلوماته مجموعة من رواة القبائل،[67] وكانت إسهاماته مفيدة للباحثين في تاريخ الجنوب المغربي.

3. تثمين الأرشيف الشفهي في الكتابة التاريخية:

يعتبر الانتاج التاريخي المغربي المعاصر انتاجا متنوعا في مضمونه ومناهجه ومرجعياته النظرية، وساهمت فيه الكثير من الدراسات والبحوث التاريخية،لاعادة كتابة تاريخ المجالات المهمشة،وهو المشروع الذي وجه مؤرخي الاتجاه الجديد بعد استقلال المغرب للرد على الأطروحات الاستعمارية حول تاريخ المغرب وتراثه،لتشمل دراساتهم وميادين بحوثهم المدن والبوادي على حد سواء، من خلال دراسة ظروف الحياة العامة والخاصة، بالاعتماد على المادة المصدرية الشفهية.

لعب التنقيب عن المصادر الجديدة دورا مهما في توجيه هذه الدراسات بالانفتاح على العلوم المساعدة للتاريخ، انطلاقا من توظيف التراث المادي والغير المادي كالوثائق التاريخية المحلية

---

[65] *Doutté, Edmond (1867-1926),Merrâkech,PUB,comité du Maroc,1905,PP :2-3*

[66]Justinard Capitaine, Manuel de Berbère marocain Dialecte Chleuh,1922.

[67] **ساعد جوستينار في انجازه دراساته مجموعة من رواة القبائل،وينتمي أغلبهم إلى الجيش الفرنسي خلال حقبة الحماية الفرنسية، وهم:الطاهر السوسي - مولاي الحسن الحاحي - سي محمد السوسي - العربي المزمزي - الطاهر المتوكي - بوجمعة الحاحي - الحسين الكدميري - سيدي حمون.أنظر:**

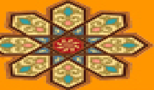
- Léopold-Victor Justinard,Manuel du berbère marocain dialecte chleuh,1914,P :2

والمخطوطات والرواية الشفوية بعد تنقيحها، ففي هذا السياق جاءت المونوغرافيات كأحد الوسائل المنهجية لاعادة كتابة تاريخ المغرب، التي رصدت التاريخ الجزئي/المحلي لابراز أهمية المجالات المهمشة في توجيه العديد من وقائع تاريخ المغرب، وأسهمت هذه المونوغرافيات في تغيير موضوع التاريخ، وتعددت اشكالياته ومقارباته للمجالات المدروسة، فأصبحت تهتم بمقاربة المجالات المهمشة في التاريخ، واتجهت الى استحضار منهج التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لهاته المجالات. ويختلف حضور المصدر الشفوي واستخدامه في الكتابة التاريخية المغربية، تبعا لطبيعة مواضيع البحث وإشكالاته، ويعتبر تاريخ المقاومة المغربية مجالا خصبا لاستثمار المصدر الشفهي، إلا أن التعامل معها واستثمارها في البحث التاريخي تعترضه العديد من الإشكاليات المنهجية، كبعد الفترة الزمنية للرواية،وغياب التوطين الزمني،متى قيلت الرواية؟، وكذلك تعدد الرواة والجهل بمصدر الخبر وتناقض الروايات على مستوى رصد الحدث التاريخي.

يطرح تعامل المؤرخ مع المادة الشفهية إشكالات منهجية على مستوى توظيفها وتثمين حمولاتها المعرفية في الدراسات التاريخية، ويعتبر الاستجواب الأداة الناجعة للباحث في تجميع وتصنيف الروايات الشفهية، ولهذه العملية قواعد متعارف عليها لدى عموم الباحثين، فعلى الباحث الالتزام بتنظيم عملية الاستجواب، ووضع أسئلة محددة حسب كل سنة، وكذلك اعتماد تقنية أخذ نقط محددة، تهم مسار وذاكرة مجال جغرافي معين أو بيوغرافية شخصية فاعلة في الأحداث التاريخية، ويكتسي الموروث الشفهي أهمية في دراسة التاريخ الجهوي، وذلك من خلال استثمار تيماته في مقاربة الظواهر الاجتماعية والثقافية والذهنية لعلاقة الإنسان بالمجال الجغرافي.

خلاصة:

يساهم الموروث الشفهي منهجيا في سد بعض الثغرات في الكتابة التاريخية، باعتبار دور الرواية الشفوية في التأريخ للأحداث التاريخية المنسية ذات الصلة بعلاقة الإنسان ببعض الظواهر الاجتماعية والثقافية، وتكتسي المصادر الشفهية كذلك أهمية بالغة في مقاربة قضايا التاريخ المعاصر والراهن، وتحتم الوضعية الحالية ضرورة تدوين الروايات الشفهية للحفاظ عليها لأجيال المستقبل، وذلك بخلق قاعدة بيانات معلوماتية شفهية، ستعتمد كمادة مصدرية في الدراسات التاريخية، فإذا كانت الدراسات الكولونيالية استثمرت التاريخ الشفهي وفق أجندتها الاستعمارية، إلا أنها حققت تراكما معرفيا لتاريخ الجنوب المغربي، وتركت لنا مادة تاريخية شفهية غنية دونتها في جل كتاباتها خلال الحقبة الاستعمارية للمغرب.



في رحاب العلوم الإنسانية





مفاهيم ومقاربات نظرية في دراسة المجتمع المغربي



رضوان ايت اعزي
باحث في علم الاجتماع
جامعة محمد الخامس.
كلية الآداب،الرباط

تقديم:

لا شك أن المجتمع المغربي قد عرف؛ منذ بداية القرن الماضي؛ تحولات اجتماعية وثقافية كبرى، بفعل الحماية الفرنسية أولا، ثم بفعل المخططات التنموية التي باشرتها الدولة بعد الاستقلال ثانيا. وتعتبر جملة التغيرات هاته بمثابة تحول نوعي، من مجتمع تقليدي ظل –طيلة قرون عديدة من الزمن- يحافظ على نمط وأسلوب حياته، إلى مجتمع اخر يتميز بخصائص اجتماعية وثقافية تمثل تهديدا وتحديا لخصائص المجتمع الأول.

ان جل التحولات التي عرفها المجتمع المغربي لم تكن عفوية ولا ذاتية، بل كانت ناتجة أساسا عن احتكاك ثقافي، كما أنها كانت عنيفة وتمت في ظرف زمني قصير نسبيا. من هذا المنطلق تنبع ضرورة دراسة نشأة وتطور الجمعيات المدنية والمجتمع المدني عموما وتراجع التنظيمات القبلية و"المجتمع القبلـي" وربطها بمسيرة التغير والتحول السوسيو-ثقافي.

اننا لا نستطيع دراسة التحولات التي مست البنيات السوسيو- ثقافية للمجتمع المغربي المعاصر، دون الإلمام بالخصائص السوسيولوجية والأنثروبولوجية للمجتمع التقليدي. كما أننا لا نستطيع الوقوف على طبيعة وحجم التحولات التي عرفها المجتمع المغربي، دون معرفة طبيعة هذا المجتمع في الماضي، وبيان مميزاته في الحاضر، وذلك من خلال الوقوف على مختلف المفاهيم والمقاربات النظرية التي حاولت فهم وتفسير طبيعة هذا المجتمع.

1- نظرية المجتمع التقليدي:

ان البحث في الأدبيات الأنطربولوجية والسوسيولوجية حول مفهوم المجتمع التقليدي والمجتمع عموما، يضع الباحث أمام جملة من التنائات المفهومية الضدية، ندكر منها على سبيل المثال لا الحصر، المجتمع الطبيعي/المجتمع المدني، المجتمع البدائي/ المجتمع المتمدن، المجتمع المحلي/المجتمع، المجتمع البسيط/ المجتمع المركب.... فقد ميز عالم الاجتماع الألماني **فيردنان توينيز** بين المجتمع المحلي أو الجماعة والمجتمع. حيت دهب إلى أن المجتمع المحلي يتميز بسيطرة القرابة والروابط الأخلاقية، ويخلق نظاما اجتماعيا متجانسا نسبيا، يتصف بأنه تقليدي ومتماسك. أما المجتمع من ناحية أخرى، فيشير إلى نظام اجتماعي تسوده علاقات تعاقدية لا شخصية، كما في المجتمع الصناعي الحضري.

ولتوضيح التفرقة بين المجتمعين المحلي والحضري عند فردنان توينيز نسوق الثنائيات التالية:

- المجتمع المحلي (الريفي)	- المجتمع التعاقدي (الحضري)
- ارادة طبيعية	- ارادة عاقلة
- الذاتي	- الشخصي
- الأرض	- المال
- أفراد مترابطون	- أفراد منعزلون

ويحيل مفهوم المجتمع المحلي على سلسلة من المعاني في الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، فهو يشير في معناه الواسع الى "اي جماعة من الأشخاص تتوحد من خلال المصالح المشتركة." كالجماعة الحرفية والتجمعات السكنية والجمعيات المدنية والنوادي... أما في معناه الخاص فيقتصر على معنى المجتمع المحلي مكانيا. وهو بشكل عام نطاق محدود إلى حد ما يوصف عادة بأنه



"تقليدي" أو "مغلق"[68]. بهذا المعنى يستخدم المصطلح بصورة أساسية لوصف المجتمعات القروية المحلية أو الجماعات التقليدية المنعزلة أو شبه المنعزلة التي تحيا في إطار المجتمعات الصناعية الحديثة.[69]

وهكذا فالمجتمع المحلي يشير الى العلاقات الشخصية أو علاقات الوجه للوجه في اطار شبكة علاقات اجتماعية محدودة النطاق أو في اطار تجمع سكني، وذلك في مقابل العلاقات غير الشخصية والتعاقدية التي تميز المجتمعات الصناعية والحضرية الحديثة.[70] بهذا الاستخدام السوسيولوجي والانثربولوجي (الخاص) فإن مفهوم المجتمع المحلي يتسع ليشمل بين ثناياه مفهوم الجمعيات المدنية.

وتشير موسوعة علم الاجتماع[71] الى أن المجتمع المحلي هو "جماعة من الناس تقطن على بقعة جغرافية معينة وتزاول نشاطات اقتصادية وسياسية ذات مصلحة مشتركة، ولها تنظيم اداري يحدد طبيعة حكمها." وهذا المعنى يتطابق مع المعنى الأنثربولوجي لمفهوم الجماعة GROUPEوالتي تعني في حقل الأنثربولوجيا مجموعة من الأفراد يربطهم رباط عام ثابت من العلائق الاجتماعية ، ويتمايزون عن غيرهم من الجماعات بطراز سلوكي جمعي خاص بهم، وبوجود درجة من التكامل الاجتماعي والاتصال المباشر والألفة وقدر من الشعور بالمصالح المشتركة بينهم واحساس بروح الجماعة.[72]

أما مصطلح "تقليدي" فهو يحمل في طياته معنىً تاريخياً، ويرمز الى ما هو متجدر في الماضي كما أنه يعود في غالب الأحيان إلى فترة ما قبل الاستعمار، بحيث يمكن وصف المجتمعات التقليدية وتحديدها من خلال بنيات و وظائف سوسيوثقافية مجتمعية محددة خاصة بالإنتاج والتوزيع والأمن الجماعي والإنجاب، والتي تختلف عن وظائف المجتمعات الحديثة.

وفي دراسة أجريت عام 1995 حول القرى في نيجيريا، يقوم كلّ من **أولوو وأيريرو** بالتمييز بين البنى أو المؤسسات النظامية وغير النظامية؛ فيتم تحديد البنى النظامية على أنها تنشأ مباشرة من الدولة الحديثة، في حين لا ترتكز البنى غير النظامية على دستور بل تحدد الحياة

68- نحث ولف مصطلح المجتمع المحلي المغلق لوصف المجتمعات القروية في أمريكا الوسطى، كما ينطبق هذا المصطلح على مناطق أخرى من العالم حيث تنتشر قرى الريفية الصغيرة.

69- شارلوت سيمون – سميت، موسوعة علم الانسان، ترجمة مجموعة من اساتذة علم الاجتماع، اشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة ، العدد 2/61 الطبعة الثاني، ص 469.

70- نفس المرجع السابق ص ص : 469/468

71- إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 1999، ص 555

72- شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، جامعة الكويت، الكويت، ط1، 1981 ، ص 898



اليومية للأفراد، بالإضافة إلى التفاعل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بينهم. هذا وتكون عادةً البنى التقليدية أو الخاصة بالشعوب الأصلية، غير نظامية كما تتّسم بتاريخ عريق وتقليد وثقافة[73].

مع العلم ان هناك تمييزا موضوعيا بين المجتمعات/الشعوب التقليدية والمجتمعات أو الشعوب الأصلية، فمصطلح "الأصلي" غالباً ما يُستخدم للإشارة إلى الشعوب الأصلية في أميركا اللاتينية، في حين يتم الإشارة إلى المجتمعات التقليدية في أفريقيا على أنها قبائل وعشائر. والجدير بالذكر أن الفرق بين "الأصلي" و"التقليدي" هو فرق جغرافي وليس نظرياً.

وعموم فالمجتمع التقليدي يشير الى واقع اقتصادي واجتماعي سبق التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية الرأسمالية، وقد أشار عالم الاجتماع R. Rostow إلى أنه « ما يطلق عليه المجتمع التقليدي يشير إلى مجتمع محدودية القوة الإنتاجية بسبب علوم وتكنولوجيا ما قبل عصر نيوتن .كما هو مجتمع وجهة النظر إلى العالم قبل عصر نيوتن» ومن منظور وجهة النظر التاريخية، فإن المجتمع التقليدي يشتمل على كل العالم ما قبل عصر نيوتن ، وعصر الدولة المكية في الصين والشرق الأوسط وثقافة البحر الأبيض المتوسط ، بالإضافة إلى أوروبا في العصور الوسطى . كما أننا نستطيع إضافة بعض المجتمعات التي جاءت بعد عصر نيوتن (مثل مجتمع القبائل في أفريقيا اليوم) لأنها لم تتأثر بالمهارات الجديدة التي تستخدمها البشرية في البيئة الخارجية لتغيير مكانتها الاقتصادية."[74]

أما عالم الأنثروبولوجي هاجن (E Haggen) فقد اشار إلى أنه اذا تمسكت الأجيال بتقليد أسلوب الأعمال في المجتمع وقلما تغيره فإن ذلك هو المجتمع التقليدي. وتكون نكهة التقاليد في المجتمع قوية، كما يمكن اكتشاف ملامحه الأخرى ايضا، وحيت تحصل السلوكيات على التأييد غير القانوني من العادات والتقاليد وهيكل المجتمع مقسم الى فئات ومكانة الفرد غالبا ما تكون تقليدية ولا يحصل عليها. بالإضافة الى ان التاريخ العالمي يدكر أن القوة الانتاجية الاقتصادية في ظل الأوضاع التقليدية تكون منخفضة جدا. ولذلك، خلاصة القول أن المجتمع التقليدي هو "مجتمع التمسك بالتقاليد بالعادات والتقاليد، والمقسم الى فئات ، ويتسم باتجاه مراتب المنزلة وعدم الانتاجية."[75]

---

[73] - وولف ليندر/ جورج لوتز: البنى التقليدية في الحكم المحلي للتنمية المحلية ، جامعة بيرن، سويسرا، معهد العلوم السياسية، بيرن، سويسرا، أيار/مايو 2004 ص: 5

[74] - رووبن، الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقا من الماضي، ترجمة عبد العزيز حمدي، مراجعة لي تشين تشونغ،(ج1 ، سلسلة عالم المعرفة، رقم 210 ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، 1996 ، ص107

[75]- رووبن، الصينيون المعاصرون، التقدم نحو المستقبل انطلاقا من الماضي، ترجمة عبد العزيز حمدي، مراجعة لي تشين تشونغ،(ج1 ، سلسلة عالم المعرفة، رقم 210 ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، 1996 ، ص107

يظهر إذن -من خلال هذين التعريفين- أن كلا العالمين يتفقان على محدودية القوة الانتاجية كخاصية مميزة للمجتمعات التقليدية، غير أن هاجن يضيف خصائص أخرى لوصفه، وهي دور العادات والتقاليد في توجيه سلوك الأفراد والتقسيم الطبقي، والطبيعة المتوارثة لمكانة الفرد في المجتمع.

2- نظرية المجتمع المركب:

يرجع الفضل في تبلور هذه النظرية إلى عالم الاجتماع المغربي بول باسكون، خلال أبحاثه الميدانية حول المجتمع المغربي. مند الستينات الى الثمانينات القرن الماضي. ووعيا منه بأن إيجاد تفسير للمجتمع المغربي يفترض بالضرورة توجيه النقد للتفاسير السابقة ولمختلف الأوصاف المغلوطة التي أطلقت على هذا المجتمع. فقد انتقد بول باسكون مختلف الدراسات التي تناولت المجتمع المغربي بالتحليل ، سواء خلال مرحلة الحماية أو في الكتابات السياسية لما بعد الاستقلال. وقد لاحظ أن معظم هذه الدراسات ركزت اهتمامها على الخصائص الجزئية للمجتمع المغربي. وأنها انطلقت في جل الأحيان من خلفيات ايديولوجية تتوخى التعميم وتركز على جانب واحد فيقال مثلا إن المجتمع المغربي قبلي (الدراسات الكولونيالية) أو إقطاعي دون الوصول إلى هذه الأحكام من خلال بحث دقيق وتحليل علمي كامل وشمولي[76].

يقول **باسكون**: "لقد كانت دراسة القبيلة موضة منذ سبعين عاما. ثم أصبحت الطبقة العاملة منذ خمسة وعشرين سنة موضوعا لعدد من الدراسات. كما أن هناك دراسات قليلة، من الصنف الجاد، عن نوعية الفيودالية المغربية. إلا أن المجتمع المغربي في كليته، لم يكن يوما مدروسا، إلا بكيفية جد سطحية وجد متنافرة."[77]

كما دعى **باسكون** إلى ضرورة الابتعاد عن النماذج الجاهزة في وصف المجتمع المغربي (يتساءل باسكون حول طبيعة المجتمع المغربي سنة 1971). مبرزا من خلال الوقائع الموضوعية أن هذه النماذج –النموذج الرأسمالي / النموذج الفيودالي/ النموذج ماقبل رأسمالي- عاجزة عن فهم وتفسير طبيعة المجتمع المغربي.

ومن خلال نقده للدراسات التي تناولت المجتمع المغربي بالاعتماد على النماذج الجاهزة. نحت **بول باسكون** مفهوم المجتمع المركب، كنظرية لفهم وتفسير طبيعة المجتمع المغربي في مرحة السبعينيات القرن الماضي. **فماذا يقصد باسكون بالمجتمع المركب؟**

76- محمد الدهان، تركيبة المجتمع المغربي حسب بول باسكون، مقال منشور بالجريدة الالكترونية هيسبريس ، بتاريخ 06 نونبر 2011

77- بول باسكون، تكوين المجتمع المغربي، جريدة المناضل الإلكترونية، 18 اكتوبر 2008

لا يقصد باسكون بالتركيب تعايش أنماط انتاج مختلفة ضمن نفس المجتمع، كمثل: " آلة مركبة من قطع غيار". بل إن مفهوم التركيب هو ذو طبيعة جدلية يروم إظهار الصراع الفعلي القائم بين مكونات المجتمع وهذا الصراع هو المحرك الفعلي لعجلة التاريخ وأصل التغير الاجتماعي.

ومما لاشك فيه يقول باسكون "أن المجتمعات التاريخية والفعلية هي بطبيعة الحال مجتمعات متنافرة ، مركبة ولا منسجمة. وتكتشف على مختلف مستويات واقعها الاجتماعي معالم متناقضة، معللة في جزء منها بمنطقها الداخلي، وفي جزئها الآخر بالتأثير الخارجي، وفي جزئها الأخير بالثوابت التاريخية، في تداخلاتها مع أنماط أخرى من التشكيلات الاجتماعية. وسرعان ما تتضح لنا استحالة إنشاء نمط لمجتمع فعلي بدون الرجوع إلى التاريخ والبيئة. وحتى بالنسبة للمجتمعات المكونة، ظاهريا، من لا شيء –يقصد المجتمع الشمال أمريكي-، أو بالنسبة للمجتمعات التي بقيت مغلقة لمدة طويلة (البداوة العربية أو الصحراوية والطوائف الجبلية) فإن نمط المجتمع الخالص أو المجتمع النموذجي غير ملائم"[78]. فهل المجتمع المغربي مركب ومن ماذا؟

يرى باسكون ان التحليل العلمي للمجتمع المغربي، لسنة 1971 ، يكشف عن وجود ملامح تخص هذا أو ذاك من المجتمعات المرجعية ؛ رأسمالية، و أقطاعية و أبوية قبلية ... متعايشة ومتجاورة فيما بينها. بحيت نجد مثلا، أن "هناك تعايش بين الشراكة والعمل المأجور والتعاون. كما أن هناك تعايشا بين الطاقات البشرية والمائية والميكانيكية والكهربائية. ويوجد الحق الأبوي في تعايش مع التقاليد القبلية والنظام الفيودالي والتشريع القرآني والقانون العصري. وتتواجد المؤسسة العائلية مع الجماعة القروية وشبكة الأسياد والدستور. ونجد عبادة الأموات جنبا لجنب مع الممارسات السحرية-الدينية والإسلام والعلم الحديث الخ..."[79] وهذا التعايش الحاصل بين طواهر اجتماعية، تبدو في الطاهر على أنها متنافرة وغير متجانس بل متباعدة تاريخيا، هو في حقيقة الأمر تعايش لا سلمي. بمعنى أن الصراع والتضاذ هو القاعدة التي تحكم العلاقة بي ن هذه الوقائع. وان التغيير الاجتماعي "ليس تعويض نموذج للإنتاج بآخر أو تشكيلة اجتماعية بأخرى، ولكن الصراع الدائم في مجتمع حقيقي معين بين جميع مكونات هذا الأخير وعلى كافة أصعدة الواقع الاجتماعي: من التكنولوجيا إلى الايدولوجيا."

[78]- بول باسكون، تكوين المجتمع المغربي، جريدة المناضل الإلكترونية، 18 اكتوبر 2008 ص: 15
[79] - بول باسكون، تكوين المجتمع المغربي، جريدة المناضل الإلكترونية، 18 اكتوبر 2008 ص ص: 16/15

هكذا يرى "باسكون" أن المجتمع المغربي مجتمع مركب، لا يمكن اختزال بنيته الى نمط انتاج واحد وموحد مهما كانت درجة انتشاره لأنه لا ينتمي إلى صنف المجتمعات المتجانسة sociétés homogènes التي قامت بتصفية حساباتها مع الماضي وتطورت في إطار مشروع سياسي واقتصادي واجتماعي متكامل وواضح المعالم. وانطلاقا من هذه الملاحظة حدد Paul Pascon طبيعة المجتمع المغربي في الخلاصة التالية:

"المجتمع المغربي... هو مجتمع قائدي مخزني يسيطر على نظام قبلي في طور الاندثار، ويسيطر على نظام أبوي (بطريركي) مازال قائما ضمن الخلية العائلية ومن خلال وضعية المرأة، لكن هذا النظام الإقطاعي برمته يدخل تحت سيطرة النظام الرأسمالي العالمي كما يتجلى ذلك في ميدان الإنتاج و التبادل."[80]

يبدو اذن، ان بول باسكون قد عمل جاهدا ، ومن خلال نقده مختلف التصورات السابقة حول طبيعة المجتمع المغربي ، على أثبات نظرية المجتمع المركب التي خص بها المجتمع المغربي و التي يمكن تعميمها على بعض المجتمعات التي تنتمي الى العالم الثالث... لكن السؤال الذي يطرح أمامنا هو: هل ما تزال نظرية المجتمع المركب قادرة على فهم وتفسير طبيعة المجتمع المغربي اليوم؟

3- نظرية المجتمع المدني الحديث:

إن البحث في نظرية المجتمع المدني في الفكر الغربي، يمتد إلى الفلسفة اليونانية. فقد دعا أرسطو إلى " تكوين مجتمع سياسي " البرلمان" تسود فيه حرية التعبير ويقوم بتشريع القوانين، لحماية العدالة والمساواة. مع الحرص على أن تقتصر المشاركة في هذا المجتمع على مجموعة من النخب في المجتمع دون إعطاء الحق للمرأة و العمال و الغرباء في المشاركة و حق المواطنة."[81]

و قد احتل مفهوم المجتمع المدني مكانة مرموقة في فلسفة الأنوار،مع كل من روسو و هوبز و جون لوك ؛ اد ساهمت نظرية التعاقد _التي أرساها هؤلاء_في تأسيسه(المجتمع المدني) و تتجلى مساهمتها هده في تركيزها على ثلاث قيم كبرى. وهده القيم هي:

_ **قيمة الفرد المواطن**: وهي قيمة عليا مطلقة، لأن في الفلسفة و المنظور التعاقدي حقوق مقدسة، خاصة حق الحياة و حق الجسد و الملكية و حرية التفكير.

[80] - بول باسكون، تكوين المجتمع المغربي، جريدة المناضل الإلكترونية، 18 اكتوبر 2008 ص: 19

[81]- محمد فهمي؛ مقال حول المجتمع المدني؛ www.pngo.net

_ **قيمة المجتمع المتضامن:** المتميز بقدرة أفراده على الإلتزام بالمقتضيات الأخلاقية و القانون الضروري لتأسيس الجماعة.

_ **قيمة الدولة ذات السيادة:** وهي سيادة لا يتم بلوغها إلا إدا اعترف المجتمع بها، و اعتبر السلط و الحقوق الناتجة عنها حقوقا مشروعة مقبولة[82].

أما بالنسبة ل: هيجل _ الذي يعد محطة بارزة في تطور و نشأة النظرية_ و في كتابه مبادئ فلسفة الحق أعتبر مفهوم المجتمع المدني في صياغته التعاقدية ، قاصر على تحقيق أمن الأفراد ، و على حماية مصالحهم الخاصة. فضلا عن المصالح العامة للدولة. و لعل السبب في ذلك يرجع حسب هيجل الى ما تتميز به مكونات هذا المجتمع من تمزق شديد ، و تناقض في المصالح المادية والطبقية ؟ وتصارع في الرؤى و الغايات. بحيث يستحيل الوصول الى استقرار سياسي ضروري لتحقيق التقدم و التطور الحضاري اعتمادا على هدا المجتمع. وهذا ما جعله يتجه نحو تفضيل الدولة على المجتمع المدني. دون التهميش الكلي و الرفض المطلق للمفهوم. فمن خلال تعريفه للمفهوم والذي أورده في كتابه السابق الذكر ؛ يقول : " يتموقع المجتمع المدني في الفرق بين الأسرة والدولة. وأن تكونه في فترة لاحقة عن الدولة التي تسبقه كواقع مستقل ، حتى يتمكن من البقاء. و علاوة على ذلك ، فإن إنشاء المجتمع المدني يرجع الى العالم الحديث ، فهو وحده الذي اعترف له بالحق في الوجود ، بكل ما يحمله هدا التحديد من معنى."[83] جاعلا و وظيفة هدا الأخير الرئيسية تتركز في الإنتاج الاقتصادي و إشباع الحاجات المادية و تبادل الخيرات والمنافع. على أن تتحمل دلك طبقة برجوازية صاعدة ، يجب تشجيعها باستمرار. و لم يفت هيجل أن يلاحظ ما يمكن أن ينتج عن هدا التوجه الليبرالي من أنار سلبية ، من إنتاج التراتبات الطبقية، و التهميش الاجتماعي والفقر، لدلك سيلح على دور الدولة في مراقبة و ضبط جموح المجتمع المدني. في نفس الوقت الذي يجب عليها ان تساعد على خلق تكتلات و اتحادات و طوائف تع ما دائما على مقاومة النتائج السلبية، و دلك بتقديمها لخدمات اجتماعية في مجال التعليم و الصحة و العمل[84].

أما بالنسبة لكارل ماركس ، فقد استعمل هذا المفهوم لأول مرة في كتابات الشباب ، و ذلك بمعنى قريب من المعنى الذي استعمله به هيجل . على أن الموقع الأخير لهذا المفهوم في المنظور الماركسي الناضج ، لن يتحدد إلا بعد تمكن ماركس من بناء نسقه النظري بكيفية تامة مع كتاب رأس المال. ففي هذا الكتاب ، وفي ذلك التمييز الكلاسيكي بين البنى التحتية و البنى الفوقية ،

[82]- عبد العزيز لحبيب،(مفهوم المجتمع المدن: الواقع و الوهم الإيديولوجي)، مجلة الوحدة، العدد 81، يونيو 1991 ، ص 63
[83]- هيجل، مبادئ فلسفة الحق، ص 183
[84]- مصطفى كامل السيد، نقلا عن عمر برنوصي، مفهوم المجتمع المدني.. مجلة فكر ونقد ص: 25

سيعتبر المجتمع المدني مكونا أساسيا من مكونات البنية الأولى، ودلك لأنه يمثل القاعدة المادية للدول خاصة على المستوى الاقتصادي و الإنتاجي. ومن ثمة فدوره حاسم في تحديد طبيعة البنية الثانية من نظم و حضارة و معتقدات و أنظمة حكم[85].و المجتمع المدني عند ماركس "هو المجتمع البرجوازي. هو هدا الوسط للإنسان الأناني، المنفصل عن المجموعة، والمتشبع بالمصالح الذاتية. و هو يحقق بالفعل تفكك المجتمع."[86]

إذا كان ماركس قد اعتبر المجتمع المدني، مرادفا للمجتمع البورجوازي ، ولم يعطيه اهتماما كبيرا في نظريته. مفضلا الاهتمام أكثر بمفاهيم أخرى تبدو له أكثر نجاعة في تفسير الواقع كالصراع الطبقي.. فهذا لم يمنع بعض الماركسيين الجدد من إعادة الاعتبار لهذا المفهوم/النظرية كأداة تحليلية ، بل وأعادوا إليه الكثير من معانيه الهيجيلية الواسعة كمقولة فلسفية ، و إعطاءه أبعادا جديدة ودلالات مغايرة ، والمقصود هنا بالضبط محاولة أنطونيو غرامشي .

سعيا منه للبحث عن كيفية لتحقيق الثورة الاشتراكية في دولة غربية رأسمالية هي إيطاليا، عمل انطونيو غرامشي، في النصف الأول من القرن العشرين ، على استنطاق التجربة الروسية القريبة منه من الناحية التاريخية ، وذلك بطرح التساؤل الرئيسي التالي عليها : ما هي الشروط و العوالم التي ساعدت الطبقة العمالية في هذا البلد على الاستيلاء على السلطة؟ و هل اختلاف بنياته الاجتماعية و الاقتصادية و كذا منظومة قيمه الثقافية عن مثيلاتها في إيطاليا، سيؤدي حتما الى تغيير و تعديل الإستراتيجية العامة للثورة؟

في سياق هذه الأسئلة وغيرها، سيرد لأول مرة مفهوم المجتمع المدني _ يقول غرامشي : يعود سبب انتصار الثورة في روسيا سنة 1917 إلى أن الدولة كانت تمثل كل شيء هناك تقريبا ، مقابل هلامية وضعف المجتمع المدني. و من ثمة كانت السيطرة على الدولة تقتضي السيطرة على المجتمع السياسي فقط (ما يسميه غرامشي بحرب الحركة). بينما نجد الدولة في الغرب متلاحمة مع المجتمع المدني الذي يقوم بمراقبتها وحمايتها في نفس الوقت. و هذا يعني أن تحقيق الثورة و الوصول الى السلطة ، ينبغي تطويرها (الاستراتيجية) و تغييرها بما ينسجم و الأوضاع الجديدة للدولة الأوربية الرأسمالية. بحيث ستقوم هذه الاستراتيجية أساسا على الهيمنة الإيديولوجية على مكونات المجتمع المدني بواسطة استخدام المثقف العضوي أو الجمعي لإنتاج رأسمال رمزي مضاد مستعينا في ذلك بمؤسسات النقابة و الحزب و المدرسة و الكنيسة و الإعلام..(ما يسميه

---

[85]- عمر برنوصي، نفس المرجع، ص 25

[86]- شومبليه؛ مدخل الى علم الاجتماع السياسي ، ترجمة اسماعيل الغزل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، 2005

غرامشي بحرب المواقع)[87]. يقول المفكر الألماني المعاصر يورغن هابرماس ان وظيفة المجتمع المدني تعني لدى غرامشي الرأي العام غير الرسمي" أي الذي لا يخضع لسلطة الدولة."[88] هده الهيمنة التي تعد حسب غرامشي الأداة الفعالة للسيطرة على المجتمع السياسي وعلى الدولة.

و على عكس ماركس، الذي لم يولي اهتماما كبيرا لهدا المفهوم في معرض نظريته فإن غرامشي أعطى المفهوم أهمية كبيرة جدا. الى جانب اهتمامه بمسألة الإيديولوجية، وخاصة الإيديولوجية المضادة (الثورية) التي يقوم المثقف العضوي و الجمعي بإنتاجها. و التي شكلت سببا كبيرا في اهتمامه بمسألة الهيمنة كإستراتيجية حتمية لكل مشروع يستهدف تغيير طبيعة الدولة و طبيعة العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية. فهو يعرف الهيمنة بأنها موقع في الصراع الاجتماعي، لأن في كل المجتمعات تقريبا توجد طبقة سائدة تمارس الهيمنة عبر المجتمع المدني ، و السيطرة عبر المجتمع السياسي. كما توجد طبقات خاضعة تحاول طليعتها الثورية أن تشكل هيمنة جديدة مضادة، لها فكرها و أخلاقياتها و فعلها الجديد ، سواء على المستوى السياسي في المجال البرلماني الحزبي ، أو على المستوى الاقتصادي في مجال النقابة و المصنع ، او على المستوى الثقافي و الاجتماعي (دعوته للتعامل البناء و الايجابي مع الثقافة الشعبية والفولكلور)[89].

نستنتج من ذلك إذن أن غرامشي يربط بين مفهوم المجتمع المدني ، و بين مجموع التنظيمات الخاصة بوظيفة الهيمنة ، و ضمه للبنى الفوقية باعتباره مجالا للتنافس و الصراع الإيديولوجي ، لا التنافس الاقتصادي كما دهب الى ذلك كل من هيجل ماركس؛ من خلال ربطهم بينه و بين المجتمع البرجوازي. فكيف نشأ المجتمع المدني المغربي؟

4- في نشأة المجتمع المدني بالمغرب:

لقد ساهم ظهور مفهوم المجتمع المدني و انبعاثه في بلدان أوربا خلال الربع الأخير من القرن الماضي، وكذلك فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، في خضم نضال هذه الشعوب ضد الحكم الاستبدادي (ضد النظام الشيوعي). كل هذا ساهم في اهتمام المثقفين و النخب السياسية في العالم العربي بأهمية هدا المفهوم، ومحاولة تبنيه كآلية للتحليل و النضال من أجل تغيير التركية السياسية السائدة؛ يقول علي الكنز: " ان قضية المجتمع المدني كموضوع مركزي للتفكير طهرت في

---

[87]- كمال عبد اللطيف:(مفهوم المجتمع المدني) مجلة افاق، (اتحاد كتاب المغرب) عدد مزدوج 3./4، الرباط، 1992، ص: 217

[88]- يورغن هابيرماس: نقلا عن الحبيب الجنحاني، (المجتمع المدني و التحول الديمقراطي في الوطن العربي) منشورات الزمن عدد_49_مطبعة النجاح الجديدة _ البيضاء ص24

[89]- عمر برنوصي، نفس المرجع السابق، ص ص: 27_28

المناقشات في أواخر السبعينات. في بلدان المغرب قبل المشرق. و بصفة مفارقة في أوساط أخرى و في عموم العالم العربي في فترة لاحقة ".

و حسب عائشة بلعربي؛ فإن أغلب الباحثين المغاربة، الدين تأملوا المجتمع المدني، يتفقون أن هذه البنية الجديدة لم تنبثق داخل الخطاب الاجتماعي او داخل الواقع السوسيولوجي أو السياسي، أو كإطار نظري إلا في الثمانينيات، و هناك عوامل عديدة ومتنوعة ذات نمط سياسي و اقتصادي و ثقافي ساهمت في تنمية المجتمع المدني عموما. وهذه العوامل حسب الباحثة هي كالتالي :

العوامل السياسية:

يعود تطور المجتمع المدني أساسا الى الانفتاح السياسي الذي عرفه المغرب، خلال العقد الأخير مع الدمقرطية المتصاعدة للمؤسسات و التطور الذي لم يسبق له مثيل للحركة من أجل حقوق الإنسان..

العوامل الاقتصادية:

عرف المغرب، في نهاية السبعينات و بداية الثمانينات، اختلالات اقتصادية داخلية و خارجية جد خطيرة. أجبرت الحكومة المغربية تحت ضغط صندوق البنك الدولي على تبني سياسة استقرار مضاعف بسياسة تسوية، قائمتين على :

- صرامة مالية كبيرة، وذلك من اجل تقليص العجز والاستفادة من قروض جديدة.
- تقليص حجم القروض.
- تصحيح التوازنات الاقتصادية.

أن سياسة التحرير الاقتصادي، التي قام بها المغرب بجرأة مند تبني برنامج التقويم الهيكلي، قد قادت الدولة إلى التخلي عن جزء من مسئولياتها للقطاع الخاص أو للجمعيات. في خطاب 3 مارس 1988 أشار الملك إلى أن دور الدولة لا ينبغي أن يبقى دور مساعدة وتحمل، بل دور المراقب و الضامن لحسن سير الاقتصاد الليبرالي. اننا نشهد انحطاط الدولة الحامية، خصوصا ان عولمة الاقتصاد واتفاقية الكات CATT و تأسيس منظمة التبادل الحر. مرفقة كلها بتشجيع يقوي أكثر فأكثر المبادرة الحرة لتثمين العمل المشترك..

العوامل الاجتماعية:

لقد مس برنامج التقويم الهيكلي مصالح عمومية متعددة: فتقليص دعم المتوجات الأساسية، وانخفاض المصاريف الخاصة بالقطاعات الاجتماعية كالتربية والصحة. أصابا في

العمق بعض العائلات القروية و الحضرية المحرومة. و حتى ذات المردود المتواضع، إظافة الى ذلك، تصاعد مستوى الفقر) حسب معطيات رسمية. تعيش 15% من الساكنة المغربية تحت عثبة الفقر المطلق. في حين أن إحصائيات البنك الدولي تعطي 35%). و تفاقمت التباينات الاجتماعية.. حيت ان الأسر المحطوطة تستهلك 14.5 اكثر من الأسر المحرومة. وتطورت الهجرة القروية. و بلغت البطالة أعلى النسب 14% خصوصا بطالة الشباب الحاملين للشهادات. فالنسبة العامة من بطالة الشباب (8 أشخاص من بين 10 تقريبا). مكونة من أشخاص يتوفرون على مستوى التعليم الابتدائي أو الثانوي أما العاطلون من دوي التعليم العالي. فيشكلون عشر السكان الباحثين عن العمل.

كل هده العوامل قادت الى استياء شعبي والى انتفاضات في المدن. خصوصا انتفاضات 1984 و انتفاضة 1990. و قد دفعت ضرورة إيقاف هذه الحركات و تأطير الشباب، بالدولة الى تبني سياسة تصالح مع الحركة الجمعوية.

العوامل الخارجية:

لقد لعبت المنظمات العالمية، خصوصا وكالات الأمم المتحدة، دورا هاما في خلق الحركة الجمعوية، و كانت بمثابة محفزات من أجل تطوير الجمعيات.. و لا يسعنا الا ان ندكر بتلك التوجهات الكبرى التي عبرت عنها شعارات بعض المؤتمرات الدولية؛ كمؤتمر البيئة بريو سنة 1992. و مؤتمر حقوق الإنسان بفيينا سنة 1993. مؤتمر نابولي حول الحرية 1994 كذلك، ومؤتمر التنمية الاجتماعية، بكوبنهاغن 1995. ومؤتمر المرآة بيكين 1996. وغيرها من المؤتمرات التي يطول جردها في هذا المقام، وقد "أخدت التنظيمات الدولية على عاتقها مسئولية الدفع بالهيئات الجمعوية للانخراط في إستراتيجية تنموية و بشرية و حقوقية. تجعل من أهدافها العمل عن قرب مع الساكنة المحلية، وقد ساهم دلك بدوره في تعزيز الشبكة الجمعوية وبث الروح في خلاياها[90].

وبما أن التنمية البشرية التي تنشدها جميع البلدان_ باعتبارها الهدف الأسمى_ تتوجه للإنسان ويشارك فيها الإنسان، فعلى جميع الطاقات البشرية أن تساهم في خدمة المجتمع المحلي و الجهوي و الوطني و الإنساني قصد الحصول على السعادة المادية والعقلية والروحية. وينبغي للناس حسب جورج قرم أن" يشاركوا مشاركة تامة في القرارات و الإجراءات التي تشكل حياتهم.

[90]- محمد الغيلاني، محنة المجتمع المدني، مجلة، و جهة نظر، العدد رقم 6، ص37

وتبرز هنا بشكل خاص أهمية جمعيات المجتمع المدني وإمكانية المحاسبة وتعديل المسار عند الضرورة. فالناس في التنمية ليسوا مجرد متلقين سلبيين بل هم عاملون فاعلون في تشكيلها."
وعليه، فالمجتمع المدني أساس التنمية، ولا يمكن تصور أي تنمية حقيقية وشاملة بدون المجتمع المدني الذي يساهم بكل طاقاته التطوعية في تشغيل الإنسان من أجل الإنسان نفسه.

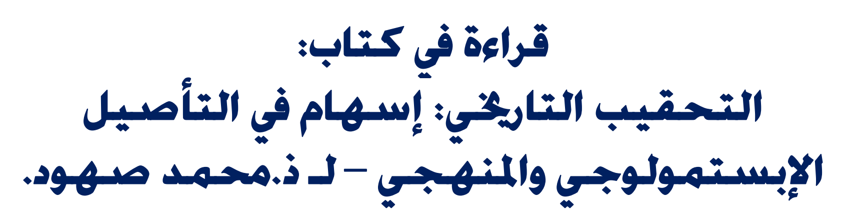
البيبليوغرافية:

- ✓ كمال، عبد اللطيف:(مفهوم المجتمع المدني) مجلة افاق، (اتحاد كتاب المغرب) عدد مزدوج 3./4، الرباط، 1992.
- ✓ الحبيب الجنحاني، (المجتمع المدني و التحول الديمقراطي في الوطن العربي) منشورات الزمن عدد_49_مطبعة النجاح الجديدة_ البيضاء.
- ✓ شومبليه؛ مدخل الى علم الاجتماع السياسي ، ترجمة اسماعيل الغزل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، 2005
- ✓ عبد العزيز لحبيب،(مفهوم المجتمع المدن: الواقع و الوهم الإيديولوجي)، مجلة الوحدة، العدد 81، يونيو 1991.
- ✓ هيجل، مبادئ فلسفة الحق،
- ✓ عمر، برنوصي، مفهوم المجتمع المدني بين الفلسفة السياسية الغربية والسوسيولوجيا المعاصرة: محاولة في التركيب مجلة فكر ونقد السنة الرابعة العدد 37 مارس 2001
- ✓ سلسلة عالم المعرفة، رقم 210 ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، 1996.
- ✓ وولف ليندر/ جورج لوتز: البنى التقليدية في الحكم المحلي للتنمية المحلية ، جامعة بيرن، سويسرا، معهد العلوم السياسية، بيرن، سويسرا، أيار/مايو 2004 .
- ✓ إحسان، محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 1999،
- ✓ شاكر، مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، جامعة الكويت، الكويت، ط1، 1981 .

- ✓ شارلوت سيمون – سميت، موسوعة علم الانسان، ترجمة مجموعة من اساتذة علم الاجتماع، اشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة ، العدد 2/61 الطبعة الثانية.
- ✓ محمد فهمي؛ مقال حول المجتمع المدني؛ wwww.pngo.net
- ✓ محمد الدهان، تركيبة المجتمع المغربي حسب بول باسكون، مقال منشور بالجريدة الالكترونية هيسبريس، بتاريخ 06 نونبر 2011
- ✓ بول باسكون، تكوين المجتمع المغربي، جريدة المناضل الإلكترونية، 18 اكتوبر 2008 .









مدخل:

يثير موضوع التحقيب التاريخي جلبة قوية داخل أروقة اشتغال المؤرخين، ورفقائهم في شتى مباحث العلوم الانسانية والاجتماعية. نقاشات صاخبة، تسطع وتخبو، هنا وهنالك، تبعا لنضج عملية التفكير التاريخي في قضايا الماضي، والانهجاس بإشكالية الذات. مراجعات وقراءات جديدة تنصب أساسا حول الاشكالية التحقيبية، توقيت الأحداث، وضع الكرونولوجيا، التأويل والمنتج التحقيبي، من أجل إخصاب المعرفة التاريخية، وبناء تاريخ مفاهيمي[91] وإشكالي.[92]، يدفع نحو انتاج

---

[91] ـ يرى بول فين في كتابه " كيف نكتب التاريخ" على أن تجديد المعرفة التاريخية لا يرتبط بوجود الوثائق بل بالاحتكاك المباشر مع أسئلة العلوم الانسانية، لأن هذا التقارب هو الذي يولد مفاهيم جديدة، وهذه المفاهيم هي التي تميز التاريخ عن الوثيقة، وتجعل المؤرخ يتحدث بلغة مغايرة عن لغة الإخباري.

نموذج بيداغوجي يُمكّن من نقل الهواجس العالمة إلى تعلمات ديداكتيكية عبر مصوغة تعلمية منسجمة مع مدخل التدريس بالكفايات.

يتغدى هذا الانهجاس من كون التحقيب التاريخي بمنطق المراجعات الابستمولوجية والديداكتيكية التي أنتجها التفكير التاريخي اليوم، لم يعد عملية ميكانيكية صرفة تقدم الماضي في شكل حقب جاهزة وقوالب زمنية قارة، بقدر ما أصبح مفهمة ،تأويل وبناء يتجاوز السرد الرتيب[93]، يعتمد على بناء الحقب، عبر رصد سيرورة التحول كميكانيزم محوري في المعرفة التاريخية، وتتبع الاستمرارية والانقطاع، الاتصال والانفصال، من منطلق بناء الاشكالية العابرة للزمن التي تمكن الباحث من استقراء التاريخ بمختلف ايقاعاته الزمنية، وتجعله يرصد وثائر التحولات العميقة التي تشهد عنها أنساق التفكير البشري في الحاضر. فهل تفصح الأعمال الاستوغرافية المغربية عن هموم تحقيبية لدى المؤرخين؟ وهل ثمة اقتناع كاف من طرف مختصي الزمن بضرورة مراجعة المفاهيم التحقيبية؟ وهل أضحى التحقيب التاريخي المعمول به بالمدرسة المغربية عائقا ابستمولوجيا يحول دون تقريب الدرس التاريخي من المتعلمين، ويحيد عن مكتسبات ابستمولوجية ناضل من أجلها رواد ابستمولوجيا المعرفة التاريخية؟ وكيف السبيل إلى ردم الهوة المنهجية في التحقيب بين الخطاب الابستمولوجي والاسطوغرافي من جهة والواقع الديداكتيكي من جهة اخرى بشكل يسهم في تنمية الجانب الفكري والمنهجي للمتعلم في الممارسة الديداكتيكية[94]؟

هندسة الكتاب:

صدر للباحث المغربي في حقل ديداكتيك التاريخ بكلية علوم التربية بالرباط محمد صهود سنة 2016م، مؤلف بعنوان "التحقيب التاريخي: إسهام في التأصيل الابستمولوجي والمنهجي"، عن منشورات جمعية البحث العلمي والتوثيق، في حوالي 272ص، مذيل ببيليوغرافيا توثيقية، وفهرس للمحتويات، والكتاب في الأصل عبارة عن أطروحة جامعية تقدم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراه

---

[92]- يرسم مشيل دوسرتو في كتابه" كتابة التاريخ" خطاطة نظرية من أجل كتابة التاريخ يسميها ب"العملية التاريخية" l'opération historique التي تتألف من ثلاث مراحل منهجية متداخلة: مرحلة الأرشيف/ مرحلة التفسير والتحليل/ مرحلة الكتابة، أنظر كتاب

Michelle de Certeau, l'écriture de l'histoire, paris, 1975.

[93]- يدافع الفيلسوف الفرنسي بول ريكور في كتابه "الزمن والسرد" عن مركزية السرد في العملية التاريخية، ويتجه إلى اعتبار التاريخ هو فن السرد بامتياز، لارتباطه بثلاث مستويات: أولا بالقارئ وما يفرضه من اقناع، وثانيا بالوثيقة وما تتضمنه من نقائص، وثالثا بالسرد وما يتطلبه من بناء درامي، ومن ثم يصبح التاريخ حسب بول ريكور وهايدن وايت عبارة عن مادة أدبية محضة، وهو ما يجعلنا نطرح تساؤلا بخصوص ذلك، هل يتعلق الامر بأزمة ابستمولوجية جديدة؟ أم بعودة التاريخ إلى انتمائه الأصلي؟

[94] ـ محمد صهود، التحقيب التاريخي، اسهام في التأصيل الابستمولوجي والمنهجي، منشورات جمعية البحث العلمي والتوثيق، مطابع الرباط نت، 2016، ص221.

بكلية علوم التربية، سنة 2011م، تحت إشراف قيدوم الديداكتيكين بالمغرب مصطفى حسني ادريسي.

يندرج هذا العمل المنهجي ضمن حلقات التراكم المعرفي الذي بدأه الباحث محمد صهود في هذا الموضوع، من خلال اهتمامه بموضوعات منهجية وديداكتيكية خصبة، ابتدأت أولا بموضوع "عملية الفهم للنص التاريخي" و"مسألة التحقيب التاريخي" من خلال تشخيص واقع تدريس التحقيب في المرحلة الثانوية التأهيلية بالمغرب، في رسالته الجامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة سنة 2002، كما تغتني اسهاماته في انخراطه ضمن اللجنة التنظيمية لإعداد ندوة دولية نظمتها الجمعية الدولية لديداكتيك التاريخ بمشاركة جامعة محمد الخامس بالرباط ما بين 22 و 25 شتنبر 2004 بالرباط في موضوع: " "لقاء التاريخ ولقاء الآخر: تدريس التاريخ باعتباره حوارا بيثقافيا":

"Rencontre de l'histoire et rencontre de l'autre: l'enseignement de l'histoire comme dialogue interculturel".

إضافة إلى مساهمته في نشر عديد المقالات ذات الصلة بالجوانب المنهجية، وإلقاء مداخلات في مؤسسات جامعية تتمحور حول ممارسة التفكير التاريخي وتعلم التاريخ، فضلا عن سنوات عديدة من العمل الميداني في مجال التفتيش التربوي والتأطير البيداغوجي لأساتذة مادة الاجتماعيات بالتعليم الثانوي، ومساهمته في تأليف العديد من الكتب المدرسية للمادة، سواء تعلق الأمر بالتعليم الابتدائي أم بالثانوي الاعدادي والثانوي التأهيلي، زيادة على مشاركته في إعداد الدليل المنهجي لتأطير المشاركة التربوية للمؤسسات التعليمية في الاحتفال بالذكرى 1200 لتأسيس الدولة المغربية، الذي أعدته وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي للاحتفال سنة 2008.

مضامين الكتاب:

تنتظم هذه القراءة وفق ثلاثة محاور تتصل بمضامين الكتاب وقضاياه الكبرى، وبتتبع الخلفية الابستمولوجية/ المنهجية والاجرائية لمقاربة اشكالية التحقيب التاريخي، وبملاحظات عامة حول القضايا الكبرى التي يثيرها الكتاب من زاوية التراكم الاستوغرافي الحاصل في الموضوع.

يحاول الكتاب أن ينسج حوارا ثلاثيا بين ثلاث مكونات متدخلة في بناء المعرفة التاريخية عموما وموضوعة "التحقيب التاريخي" على وجه الخصوص: المؤرخ كمنتج المادة التاريخية،

والديداكتيكي كمستهلك، والابستمولوجي كمفكك لهذه المادة. وعبر هذا الحوار الثلاثي، يجد القارئ من داخل الكتاب، مساءلة عميقة لطريقة اشتغال مختصي الزمن، ورصدا لمجمل العمليات الفكرية التي تسم عملية التفكير والكتابة التاريخية، واستقراءا عميقا لاستوغرافية المؤرخين ومناهج البحث التاريخي، من خلفية محاولة نقل هذا العملية التاريخية من جانب نظري منهجي وابستمولوجي داخلي نحو جانب تربوي ديداكتيكي[95]، يتوج ببناء نموذج نظري واجرائي عبر "مصوغة تعلمية"، وفقا لتصميم منهجي من ثلاثة فصول:

فصل أول منهجي يستعرض اشكالية البحث وأدواته المنهجية.

فصل ثان خاص بالتأصيل النظري للنموذج الديداكتيكي.

فصل ثالث خاص بتجريب النموذج الديداكتيكي عبر المصوغة التعلمية ونتائج التجريب.

يحاول محمد صهود في الفصل الأول تتبع السياقات المعرفية والاجتماعية والتربوية التي جعلته يهتم بموضوع التحقيب التاريخي، محددا الأدوات المنهجية التي ستمكنه من تمحيص فرضياته.

يعنى الفصل الثاني بالتأطير النظري للنموذج الديداكتيكي وعملية النقل الابستمولوجي للتحقيب التاريخي من مستواه الاكاديمي الى مستوى الممارسة التربوية من خلال استقراء الكتب المنهجية والابستمولوجية من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التحقيب التاريخي كمفهمة Conceptualisation

المبحث الثاني: منهجية التحقيب، من خلال التمييز بين التحقيب كسيرورة منهجية وبين التحقيب باعتباره منتجا، من خلال التوصل إلى الفرضيات التالية:

1- التحقيب كبناء ذهني للماضي على ضوء اشكالات الحاضر، إذ لا حضور للماضي إلا في مخيلة الحاضر.

2- التحقيب كأشكلة تأخذ بعين الاعتبار تعدد المقاييس والأبعاد.

3- التحقيب كبناء افتراضي يمس ثلاث جوانب: المفهوم/ المنعطف/ طبيعة التحول.

4- التحقيب كاشتغال على الزمن وبالزمن بتعدد مستوياته.

5- التحقيب كتقويم يعبر عن وعي تاريخي.

يهتم المبحث الثالث ببناء خلفية ديداكتيكية تستند إلى ثلاث أبعاد أساسية: البعد المنهجي/ البعد البيداغوجي(المقاربة بالكفايات) والبعد الوثائقي(دور الوثائق والدعامات في عملة التحقيب).

---

[95]- أصبحت الاستوغرافيات الحديثة تنقل اهتمام المؤرخين من البحث في التاريخ كمتن معرفي إلى البحث حول خطاب البحث، وتشهد على ذلك بيوغرافيات عدة مؤرخين الذين انتقلوا من البحث في مواضيع تاريخية الى البحث في ديداكتيك التاريخ من أمثال هنري مارو وبول فين.

في ما يعنى الفصل الثالث من الدراسة بأجرأة النموذج الديداكتيكي من خلال تجريبه على تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر متوجا بإعداد مصوغة تعليمية تتضمن دليل الاستاذ وكراسة للتلميذ ،حيث تهدف هذه المصوغة إلى ربط تدريس التاريخ بالمنهج، والانتقال من التاريخ كمعطى إلى التاريخ كمنتج يساهم في تفكيك أسئلة الماضي من خلال الحاضر، من أجل جعل المتعلمين يكتسبون مهارات منهجية في ممارسة التحقيب التاريخي، ويستند هذا الفصل إلى ثلاثة مرتكزات: مرتكز ابستمولوجي ومرتكز منهجي واسطوغرافي، ومرتكز بيداغوجي.

تنبني الخلفية النظرية لهذا الكتاب على دراسة مرجعية للديداكتيكي هنري مونيو حول "ديداكتيك التاريخ"[96] لمعرفة تمثلات الأساتذة والمتعلمين حول اشكالية التحقيب التاريخي، وهو أمر يسترعي الانتباه في قراءة المنجز الديداكتيكي الحاصل اليوم برحاب الجامعة المغربية حول إشكالية التحقيب، الذي يظهر نقصا في هذا الجانب، فالمؤرخ المغربي يتفادى الغوص في الجوانب الابستمولوجية والديداكتيكية المصاحبة لفعل التفكير التاريخي، في مقابل، تشهد بيوغرافيات بعض الأجانب على المزاوجة بين البحث التاريخي وديداكتيك التاريخ، كما يبرز من خلال أعمال الفيلسوف الفرنسي بول فين الذي كتب كتابا بعنوان "كيف نكتب التاريخ"[97] وهنري مارو حول " المعرفة التاريخية"[98] وعبد الله العروي في مفهوم التاريخ[99].

يطرح إذن كتاب التحقيب التاريخي عدة قضايا كبرى للنقاش:

1- التحقيب وسؤال التقادم:

يشن الكتاب هجوما على ما يسمى "بالتحقيب الرباعي" ويؤكد على تقادمه في مواكبة انشغالات المعرفة التاريخية في الحاضر، فهذا التحقيب يعود إلى أكثر من أربعة قرون، أي حوالي القرن السابع عشر، ولم تعد له فعالية مفاهيمية ونظرية، بل وأضحى يشكل عائقا ابستمولوجيا أمام تطور المعرفة التاريخية، إلى درجة جعلت مرجعا يحظى بميزات أساسية:

أ- فعالية مؤسسية من حيث تدبير البنيات الجامعية.

ب- إطار للبحث الجامعي وتحديد التخصصات داخل التاريخ.

---

[96] - Henri Moniot, Didactique de l'histoire, Nathan, 1993 ; et» l'imaginaire peridiasateur » in Science technique et imaginaire: De la fiction a l'invention, de l'invention a la fiction. Acte de 12 eme journée internationales sur la communication, l'éducation et la culture scientifique et industrielles centre jean franco Chamonix, 1990.

[97] - Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire, Paris, Seuil, 1979.

[98]- Henri -Irénée Marrou, De la connaissance historique, Paris, Edition du seuil, 1975.

[99]- لا زال كتاب مفهوم التاريخ للمؤرخ عبد الله العروي لم يقرأ بعد بشكل كاف يمكن من استيعاب كل مضامينه المعرفية، والحال يعتبر هذا الكتاب من أهم ما كتب في حقل الابستمولوجيا.

ج- منطلق لبناء المنهاج الدراسي.

د- مرجعية للمباريات الرسمية للمتدربين والمكونين.

ذ- أساس لترتيب الأرشيفات الوطنية والدولية.

والواضح، ترافق هذا التحقيب الرباعي جملة إشكاليات كبرى، من قبيل هل يطابق مثلا تاريخ الشعوب غير الأوربية؟ وهل يتلاءم مع تخصصات أخرى مجاورة للتاريخ في سياق تبني خلفية التناهج؟ وهل تتماشى مفاهيمه مع مستجدات المعرفة التاريخية؟

وعموما، يطرح التحقيب التاريخي عدة اشكاليات بين الفلاسفة والمؤرخين:

أولا - التحقيب التاريخي يشترط وحدة التاريخ الانساني، وتعد هذه النقطة جوهر خلاف عميق بين الفلاسفة والمؤرخين، فمثلا الفيلسوف أوزوالد شبنغلر صاحب كتاب " أفول الغرب" لا يعترف بوحدة التاريخ الانساني، ويدفع بالقول أن هناك ثقافات متعددة لها خصوصيات تميزها .

ثانيا - البنيوية: كاتجاه فلسفي وجهت نقدا لاذعا إلى المعرفة التاريخية، من خلال التركيز على مفهوم الثبات، عكس التاريخ الذي يركز على مفهوم التحول، ويظهر لقارئ كتاب فرناند بروديل " كتابات حول التاريخ" الذي هو عبارة عن معارك مع العلوم المجاورة لإثبات هوية التاريخ في لحظة فقدان الهوية بعد الانصهار في دائرة العلوم الاجتماعية خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي، فالحقبة تكتسي عند البنيويين مفهوم البنية، بينما عند "مؤرخ المتوسط" ترتبط بالزمن المتعدد:

المدة الطويلة: الجوانب الحضارية والثقافية/ المدة المتوسطة: الجوانب الاقتصادية والاجتماعية/ المدة القصيرة: الجوانب السياسية والديبلوماسية، ويظهر ذلك مع الانتربولوجي البنيوي كلود ليفي ستراوس أعاد النظر في مركزية الغرب الاثنوغرافية، ودافع عن "المجتمعات الباردة"

2- المفاهيم التحقيبية:

يناقش الكتاب سيرورة تشكل المفاهيم التحقيبية لدى المؤرخين، التي تعبر عن بناء داخلي، وتتسم بمراجعة دائمة حسب مستجدات الانتاج الاستوغرافي، مقدما مثالا ل" مفهوم الوسيط" الذي يبتدأ في عرف التحقيب المعياري مع الغزوات الجرمانية وسقوط الامبراطورية الرومانية وينتهي باكتشاف العالم الجديد في آواخر القرن الخامس عشر(476-1492، هذا المفهوم من حيت تأصيله التاريخي بدأ مع مؤرخي الحركة الانسية خلال القرن الخامس عشر، ثم انتشرت الكلمة في القرن 17م مع المؤرخ الألماني سيلاريوس على المستوى المدرسي، وأصبح الوسيط مع مفكري عصر

الأنوار خلال القرن 18م يحمل نعتا قدحيا في سياق كراهية الأنواريين للكنيسة وتمجيد عصر النهضة، ليحصل شبه إجماع خلال القرن التاسع عشر على أن الوسيط يمثل عصر الظلام. وفي سياق تجدد المعرفة التاريخية وقع تخفيف لهذه النظرة السلبية للوسيط مع كل من جاك لوغوف بفرنسا وعبد المجيد قدوري بالمغرب. بل هناك من اعتبر الوسيط يمتد إلى حدود الثورة الفرنسية، وهناك من عثر على بقايا وسيطية في القرن العشرين، كإمانويل لوروا لادوري في مونوغرافيته حول "مونتايو"، وجورج دوبي حول تاريخ أوربا في العصر الوسيط.[100]

3- واقع العالم العربي والاسلامي في علاقته بالتحقيب:

يتتبع الكتاب تفاعل الاستوغرافيا العربية الاسلامية مع اشكالية التحقيب التاريخي، ويرصد بعض الاسهامات الجادة التي تناولت التاريخ العربي الاسلامي كتلك التي أنتجها هودسون حول " الاسلام في التاريخ العالمي"[101]، التي تفصح عن تبنيه مسافة من التحقيب الرباعي في تحقيبه لتاريخ الإسلام، معيدا النظر في مسألة أن العالم الاسلامي دخل مرحلة انحطاط بعد معركة بلاط الشهداء سنة 732م، ومؤكدا على قوة العالم الاسلامي إلى حدود القرن السادس عشر، مقدما دليلا على ذلك بوجود ثلاث امبراطوريات قوية في قلب العالم الاسلامي تشهد على امتداده المجالي: الامبراطورية المغولية في الهند، الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الصفوية، وبهذا يكون هودسون قد أعاد النظر في مسألة الانحطاط التي وسمت الانتاج التاريخي قياسا بالامتداد الجغرافي.

وضمن هذا السياق، ينتقد محمد صهود ما يسميه ب"التحقيب المعكوس" الذي يأخذ التحقيب الأوروبي، ويحاول إفراغه من محتوياته المعرفية، من خلال نموذج عمر فروخ الذي جعل فترة التاريخ الوسيط مثلا تبدأ في التاريخ الاسلامي مع هجرة الرسول الى غاية 1453 سنة فتح القسطنطينية، إنه تحقيب يبحث عن إعطاء خاصية للعالم الاسلامي لكنه يعكسه[102].

4: التحقيب كسيرورة منهجية:

يسائل محمد صهود من خلال مبحث التحقيب التاريخي كسيرورة منهجية تلك العمليات الفكرية التي يعبئها المؤرخ لإنتاج تحقيب معين، فعادة ما يتم اعتبار التحقيب عبارة عن تقطيع كرنرولوجي

[100] **George Duby, l'économie rural et la vie des compagnes dans l'occident médiéval, 2 vol, paris, 1962.**
[101] **G. Hodgson et S. Marschal, l'islam dans l'histoire mondiale, Texte réunis, Traduit de l'américain, et préface par Abdeslam Cheddadi, Sindibab, Actes du sud pour la traduction française, 1998.**
[102]– انتقد عبد الله العروي هذا التوجه من التحقيب مؤكدا على أكد أن الإتجاه الفعلي للتأليف التاريخي كان من التجزئة بالحقب إلى التقسيم حسب السنوات ، أي أن الحقبيات (**périodes**) سبقت الحوليات (**chroniques**)، ويمكن القول أن المؤرخين اختاروا في القرون المتأخرة التأريخ حسب السنين أو حسب العقود ، فطغى التأليف الحولياتي لمدة طويلة، ثم شعر الإخباريون (**chroniqueurs**) والمؤرخون (**historiens**) لأسباب تختلف من مكان إلى آخر، بضرورة استعادة مفهوم الحقبة، لكن في سياق جديد، وقد ساهم ذلك في ظهور واستخدام تحقيبات مختلفة.

للزمن، ويتم نسيان الخلفية النظرية التي تكون وراء هذا التحقيب، التي تنبني على التعريف التاريخي كأرضية نظرية للتحقيب، فالتحقيب التاريخي هو مفهمة ترمي إلى إبراز التحولات المجتمعية في الزمن وليس الماضي بتعبير المؤرخ مارك بلوك" التحول في الزمن"[103]، هو تحول في الزمن ووثائره ومنعطفاته، حيث تتم هذه المفهمة عبر سيرورة منهجية تتأسس على صياغة إشكالية تحقيبية تستهدف بناء الحقب، وإنتاج مفاهيم تحقيبية، من منطلق كرنولوجي، ثم تأويلها. فالتحقيب ليس عملية بسيطة فهي عملية ننتج بها المعرفة التاريخية.

وتتفرع عن التحقيب باعتباره سيرورة منهجية عدة قضايا: الإشكالية التحقيبية/ التوقيت/ الكرونولوجيا/ التأويل.

أ- الإشكالية التحقيبية:

يستحضر الديداكتيكي محمد صهود تجربة أندري سيغال ديداكتيكي كندي أثناء اشتغاله مع التلاميذ في الثانوي، انطلق من إشكالية معاصرة حول مفهوم الغرب المعاصر، تناول اشكالية "أصول الغرب المعاصر"، منطلقا من فرضية أولية: أن الغرب ظهر حوالي 1000 م بين نهر السين والراين عن طريق التأقلم ما بين ثقافة متوسطية وثقافة أطلسية، هذا التناول الذي تبناه أندري سيغال سيمكن من تجاوز التحقيب الرباعي، أو "العصابات الأربعة"، ويكون بذلك أنتج تحقيبا يرصد مظاهر التحول ووثائره في الزمن، ويتتبع محطاتها.

ب- التوقيت: La datation

عملية تقنية تهدف الى وضع الاحداث داخل سلم زماني اخترعه الناس هو التقويم، ويطلق التقويم على العملية والنتيجة في ان واحد، وهو ما تدل عليه كلمة الروزنامة، ويتمثل في توطين الأحداث والوقائع[104]، وهو عملية أساسية في منهج المؤرخ، قد يكون عاما بالسنوات، وقد يكون بالشهور، وقد يكون بالدقائق والثواني في الحالات الديبلوماسية. فالتوقيت ليس سهلا ويتضمن صعوبات كثيرة، فمثلا توقيت القوانين هل نعتمد تاريخ المصادقة في البرلمان؟ أم تاريخ دخوله حيز التنفيذ؟ أم تاريخ صدوره في الجريدة الرسمية؟ وبالتالي يكون المؤرخ مرهون بالزمن، سواء كان قصيرا أو طويلا.

---

[103] -M. Bloch, Apologie pour l'histoire ou métier de l'historiens, paris, Armand Colin, 1964. 1974, P 5.

[104]- محمد صهود، التحقيب التاريخي، اسهام في التحقيب الابستمولوجي والمنهجي ، مطابع الرباط نت، 2016،ص158.

ج- الكرنولوجيا: Chronologie

تقسيم حسب التسلسل الزمني وتقطيع زمني لتطور الاحداث التاريخية، ويعتبها البعض العلم الذي يمكن من موضعة الاحداث في صيرورة التاريخ البشري[105]، يجب أن نميزها عن مفهوم الحوليات، فالحوليات هي ممارسة تاريخية تقليدية قديمة تقتضي ترتيب الأحداث، بينما الكرونولوجيا علم مساعد يقوم على أساس موضعة الأحداث في التاريخ سواء كان تاريخا وطنيا، أو محليا أو عالميا. وبهذا تطرح الكرنولوجيا عدة صعوبات لموضعة الأحداث في الزمن، فمثلا تاريخ إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما، هل نعتمد على 6 غشت 1945 بالتوقيت المحلي؟ أم 5 غشت 1945 بتوقيت واشنطن؟ ونفس الشيء يقاس في ما يتعلق في إلتقاء التقاويم القمري والشمسي مثلا.

د - التأويل: L'interprétation

ماذا نؤول؟ نؤول: وحدة الحقب وتنوعها، نؤول التحول، نؤول المنعطفات.

المنعطف مكون أساسي للإنتاج التحقيبي، فهو ليس قطيعة زمنية تفصل بين حقبتين، فمثلا لا يمكن أن نعتبر سنة 476م حقبة فاصلة بين التاريخ القديم والوسيط، وبالتالي فالمنعطف هو قطيعة واستمرارية في آن، ويتضح ذلك من خلال كتاب "تاريخ المغرب تركيب وتحيين" الذي أنجزه المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب تحت إشراف محمد القبلي، الذي سمى القرن الخامس عشر ب"المنعطف"، فالمنعطف قد يكون سنة مركزية 1415م. وقد يكون قرنا حسب طبيعة التحولات، وبالتالي المنعطف ليس هو السنة القطعية الفاصلة لكنه قد يتضمن الاستمرارية.

تأويل وحدة الحقب وتنوعها:

مثلا "مرحلة الحماية" تدخل ما بين منعطفين، لكنها داخلها وحدات وحقب فرعية، مثل فترة الحركة الوطنية، وداخل فترة الحركة الوطنية قد نجزؤها إلى حقب فرعية تدخل في إطار حقبة كبرى عامة.

- تأويل التحول:

بماذا نؤول؟ قد نعثر على وثيقة؟ قد نؤول بعنصر تفسيري؟ قد نؤول بالمقارنة.

---

[105]- محمد صهود، نفسه، ص159.

خلاصات:

المؤرخ حينما يحقب لا يشتغل بمنطق آلي، فهو يصدر عن إشكالية وهو يمارس التوقيت واشكالياته إنطلاقا من قراءة الوثائق، كما يمارس ترتيب هذه الأحداث عبر التزامن والتعاقب، ثم يقوم بتأويلها.

المنهج التحقيبي يمكن تشريحه إلى عمليات فكرية.

المؤرخ لا يقوم بالتحقيب بشكل خطي يبدأ بالإشكالية وينتهي بالتأويل، وإنما يقوم بعملية دورانية أو لولبية.

4: المنتج التحقيبي:

يتساءل محمد صهود في سياق المنتج عن ماذا ينتج المؤرخ؟ ليقدم جوابه من ذلك من خلال ثلاث منتوجات أساسية:

أ- المنتوج الأول: الحقبة:

الحقبة هي فترة من الزمن تنحصر بين منعطفين زمنيين وتتسم بخصائص تميزها عن الحقبة السابقة، وتنتظم في مفهوم مركزي عام، وتبرز تحولا ما، وتستخلص معالم الحقبة من خلال من الاحداث والوقائع المهيمنة[106]،فمثلا مفاهيم مثل النهضة، الأنوار، السلفية وغيرها هي مفاهيم ليست معطاة في الوثائق التاريخية، وقد تكون معطاة، لكن المؤرخ يقدمها في صيغة علمية ممنهجة.

ب- المنتوج الثاني: المنعطف:

المنعطفات هي الحدود الزمنية التي تفصل بين الحقب، لكن مفهومها لا يشير إلى القطيعة بين الحقب فحسب، بل يدل أيضا على وجود استمرارية تفيد معنى التراكم، ويشير المنعطف إلى وجود تحولات لا تشمل فقط مجالا واحدا بل مجموعة من المجالات والقطاعات بشكل متزامن ومتواز، وقد يكون المنعطف عبارة عن تاريخ محدد في سنة مثلا، او عبارة عن مدار زمني من سنوات عدة تتمحور حول سنة مركزية[107].

[106]- محمد صهود، التحقيب التاريخي، اسهام في التأصيل الابستمولوجي والمنهجي، ص160.
[107]- محمد صهود، نفسه، ص 161.

تبنى كتاب "تاريخ المغرب تركيب وتحيين"[108] فرضية القرن التاسع عشر الممتد 1792-1912 التي تعبر عن تحول المغرب من لحظة إلى أخرى. فالمنعطف يبقى تحت السلطة المعرفية للمؤرخ، التي تمتح من الاعتماد على معطيات وثائقية أو معطيات تأويلية.

د- المنتوج الثالث: التحول:

لا نركز على القطيعة بل حتى الاستمرارية، فالحماية تتضمن قطيعة مع مغرب ما قبل 1912، ولا ننكر الاستمرارية التي هي موجودة فيها "الثابت والمتحول". وبالتالي، يكتسي مفهوم التحول عدة دلالات: فهو من تطبعه الشمولية (اقتصادية، سياسية، اجتماعية، فكرية، تقنية...)، ومن جهة أخرى التعددية في المقاييس المكانية (محلية، وطنية، اقليمية، جهوية...) ومن جهة ثالثة التفاعلية بين ما هو خارجي وما هو داخلي بين المركز والهامش من حيث ميزان القوة (الهيمنة ورد الفعل تجاه الهيمنة، تكتلات وتكتلات مضادة).

ج- المنتوج الرابع: الإنتاج

يتم من خلال بناء الحقبة، وعدم السقوط في اسقاط المحتوى المعرفي على الحقب الزمنية.

5- البعد البيداغوجي للتحقيب:

تشير التوجيهات التربوية الى كون التحقيب مجرد "قدرة ضمن كفاية ترسيخ اكتساب المهارات المنهجية" وبالتالي فهو لا ينسجم مع منطق الكتاب من حيث أن التحقيب مفهمة وسيرورة منهجية، فالتحقيب حسب الكتاب عبارة عن " عملية منهجية كبرى بمثابة كفاية من بين الكفايات التي ينبغي ان يسعى تدريس التاريخ لتنميتها في المتعلم"[109]، وعلى هذا الأساس، اختار الباحث تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر من أجل تطبيق المنهجية التحقيبية المقترحة، بهدف أجرأة تعلم المنهجية التحقيبية من خلال اقتراح بطاقات تعليمية تتضمن أنشطة ديداكتيكية تنميها بدورها عمليات فكرية معينة. ولضمان إنجاز المصوغة اقترح الباحث مجموعة من التدابير الديداكتيكية التوجيهية، كما قدم أجوبة للمصوغة التعلمية، بهدف تأسيس تعلم التحقيب التاريخي على أسس منهجية ابستمولوجية من شأنها أن تسهم في تنمية الممارسة المنهجية التحقيبية عند متعلم المرحلة الثانوية التأهيلية[110].

ولإنجاز هذه المصوغة ثم الارتكاز في بنائها على أسس منهجية وابستمولوجية بحيث ثم توضيح أبرز مكونات هذه الأسس، والمتمثلة في المقولات المنهجية التحقيبية (أشكلة، التوقيت،

---

[108]- جماعة من المؤلفين "تاريخ المغرب: تحيين وتركيب" إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011.

[109]- محمد صهود، التحقيب التاريخي: اسهام في التأصيل الابستمولوجي والمنهجي ، نفسه، ص 12.

[110]- محمد صهود، نفسه، ص 16.

الكرنولوجيا، التأويل ثم البناء)، كما ثم تأطيرها بيداغوجيا بمدخل مقاربة الكفايات، وهكذا ثم الانطلاق من الكفايات، وهي عملية التحقيب عموما من أجل تفريعها إلى قدرات بدورها يتم تفريعها إلى أهداف تعلمية، وأخيرا عمليات فكرية تختتم بإنجازات إجرائية[111].

ولأن موضوع التحقيب التاريخي يحتاج إلى تأسيس منهجي وابستمولوجي يساهم فيه المدرس، فقد استندت المصوغة التعلمية إلى إعداد دليل الأستاذ يتضمن كل المعطيات المعرفية والمنهجية والتنظيمية التي تجعله دليلا توجيهيا، وذلك بهدف توحيد الرؤى والتصورات بين الأساتذة المجربين، ويرتكز هذا الدليل على انشطة ديداكتيكية متمفصلة حول اشكالية تحقيبية، بهدف اقامة نقل ديداكتيكي للمعرفة العالمة إلى أنشطة تعلمية[112].

ويختتم الفصل الثالث بمبحث تجريبي لعينتين إحداها تجريبية وأخرى ضابطة في ثلاث مديريات اقليمية (بنسليمان/ القنيطرة/ مولاي رشيد) حول اشكالية مركزية :

كيف يمكن ردم الهوة المنهجية في التحقيب بين الخطاب الابستمولوجي والاسطوغرافي من جهة والواقع الديداكتيكي من جهة اخرى بشكل يسهم في تنمية الجانب الفكري والمنهجي للمتعلم في الممارية الديداكتيبكة.[113]

وبعد تمحيص الفرضيات توصل الباحث محمد صهود الى ما يلي:

1- المصوغة التعلمية المهيأة على أسس ابستمولوجية ومنهجية قابلة للأجرأة على مستوى الممارسة الديداكتيكية في الفصول الدراسية بالتعليم الثانوي التأهيلي، وهي بذلك تعدو منسجمة مع أطروحة مصطفى حسني ادريسي حول التفكير التاريخي وتعلم التاريخ[114]، وأطروحة البشير تامر مفهوم الزمن التاريخي[115].

2- تطوير ديداكتيكية التحقيب التاريخي رهين بالتنقيب في الأصول الاسطوغرافية المنهجية والابستمولوجية من أجل الوقوف على المفاهيم المهيكلة للتحقيب التاريخي.

3- تعلم منهجية التحقيب التاريخي بناء على أسس ابستمولوجية ومنهجية ضمن المصوغة التعلمية يؤدي إلى تحصيل أكبر على المستوى المنهجي للمتعلمين.

4- تمكن المتعلمين من تعلم المفهمة المرتبطة بالتحقيب التاريخي في مختلف خطواتها المنهجية.

---

[111]- محمد صهود 2016، ص 185.
[112]- نفسه، ص 220.
[113]- نفسه، ص 221.
[114] M. Hassani Idrisi, La pensée historienne et l'apprentissage de l'histoire, Paris, le Harmattan, 2005.
[115] - البشير تامر، مساهمة في ديداكتيكية الفكر التاريخي: اقتراح نموذج ديداكتيكي لتعلم مفهوم الزمن التاريخي في السنة الثالثة ثانوي اعدادي، اطروحة لنيل دكتوراه الدولة علوم التربية، تحت اشراف امحمد الزعيمي، كلية علوم التربية، الرباط، السنة الجامعية: 2004 /2005

مناقشة الكتاب:

يثير كتاب التحقيب التاريخي جملة من الملاحظات:

أولا: استوغرافيا التحقيب بالمغرب:

استأثر موضوع التحقيب التاريخي باهتمامات عدة باحثين بالمغرب وخارجه، وهو تناول قديم في ثوب جديد، تكشف عنه عدة مساهمات لكل من عبد الله العروي في كتابه " مفهوم التاريخ" الذي لا زال لم يحظ بالمتابعة النقدية اللازمة، وكتاب محمد عابد الجابري "تكوين العقل العربي" مقالة لأحمد التوفيق بعنوان " تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، أفكار في التحقيب، ناهيك عن سلسلة من الندوات التاريخية[116].

وتفصح هذه الاسهامات الاستوغرافية عن هموم تحقيبية تعتري عملية كتابة التاريخ، ومحاولة هدم كرنوزوفية التحقيب الرباعي الذي يخفي زوايا ظل كثيرة معتمة في التاريخ المغربي، والواقع، تنهجس كل هذه الاسهامات التحقيبية بالبعد المركزي للإسلام كتحول مفصلي في تاريخ المغرب، إذ يلاحظ أن جل المؤرخين المغاربة، باختلاف مشاربهم واتجاهاتهم الفكرية، لم يستطيعوا الانفلات من الحضور القوي للإسلام كمعطى جديد وحاسم في تاريخ المغرب، لذلك أصبح من الضروري اعتباره في أي اقتراح لتحقيب مغربي.

ثانيا: التحقيب ونمط الانتاج بمغرب ما قبل الاستعمار:

يثير هذا الموضوع نقاشات صاخبة بين المهتمين بحقل الاقتصاد والسوسيولوجيا والمؤرخين من أجل فهم عمق البنيات الاقتصادية والاجتماعية بمغرب قبل الحماية، وفي هذا الصدد يقف المتتبع لهذا المتن المتعدد، على تنوع الفرضيات الاقتصادية التي حاولت تفسير نمط الانتاج ما قبل الكولونيالي، فهل يتعلق الأمر بنمط انتاجي عتيق كما أفادت بذلك المؤرخة الفرنسية لوسيت فالنسي؟ أم يتعلق الأمر بنمط معاشي بتحديد نيكولا مشيل؟ أم بنمط قيدوي/ قائدي بعبارة بول باسكون؟ أم بنمط انتاجي مبني على الكفاف بتحديد أحمد التوفيق؟ أم بنمط انتاجي آسيوي كما تفيد أدبيات التحقيب الماركسي؟

ثالثا: التحقيب والوعي التاريخي:

[116]ـ تناولت عدة أقلام موضوع التحقيب التاريخي ويمكن الاستئناس هنا ببعض منها مع المفكر عبد الله العروي في كتابه : " مفهوم التاريخ " ، ومحمد عابد الجابري في كتابه : "تكوين العقل العربي " ومحمد حواش، ملاحظات واجتهادات حول مسالة التحقيب في التاريخ العربي، ضمن ندوة "التحقيب، التقليد، القطيعة والسيرورة"، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1997، وأيضا محمد فتحة، "تدريس تاريخ العصر الوسيط ومسألة التحقيب"، ضمن ندوة " التحقيب في الكتابة التاريخية المغاربية، مراكش 29/26 ماي 2005، تونس 23/21 نوفمبر 2005 ، وكذلك أحمد التوفيق في مقال له يحمل عنوان : "تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر ، أفكار في التحقيب " مجلة المشروع ، الرباط ، العدد 9 ، السنة 1988 ، زيادة على ذلك كان موضوع التحقيب موضوعا أساسيا لندوتين ، الأولى حول " إشكال التحقيب " ، 1994 والثانية حول "التحقيب: التقليد ، القطيعة ، السيرورة "،1997.

هذا التجديد المنهجي يدمج التحقيب في صلب العملية التاريخية التي تحدث عنها مشيل دوسرتو في مقالته ضمن الكتاب الضخم الذي أشرف عليه جاك لوغوف " صناعة التاريخ"، حيث يصبح التحقيب التاريخي عملية بناء واعادة بناء، كتابة واعادة كتابة، قراءة وإعادة قراءة، استعادة لمقولات ومفاهيم، واعادة صياغة مقولات ومفاهيم، تعليق على تعليق، تأويل داخل تأويل، تتأتى عملية تجديد المعرفة التاريخية، وبهذا التجديد يتمكن الباحث من أن يضفي نوعا من المعقولية في الاستدلال التاريخي، ويعيد النظر في التحقيب المعياري الموروث عن التجربة الأوربية (قديم/ وسيط/ حديث / معاصر) لنفاذية صلاحيته المعرفية والمفاهيمية من جهة، ولعدم قدرته على الاستجابة لتطورات ابستمولوجيا المعرفة التاريخية.

رابعا: التحقيب وأسئلة الأجرأة البيداغوجية:

يطرح نقل المصوغة التعلمية من واقع نظري ابستمولوجي ومنهجي إلى عملية التجريب والتطبيق عدة اكراهات، سواء بالنسبة للمدرسين وحتى المتعلمين، ومن جملة هذه الصعوبات ما قد يرتبط ببنيات الاشتغال داخل المؤسسات الثانوية، ومنها ما قد يرتبط بغياب المتابعة النقدية لأغلبية الاسهامات الديداكتيكية في حقل التاريخ من طرف المدرسين، ومنها أيضا ما قد يرتبط بأزمة العلوم الانسانية وببؤس التاريخ، وعدم قدرته على تقديم إجابات مقنعة لأسئلة المتعلمين الماتحة من عمق الحاضر وانهجاساته، في زمن أضحى فيه التاريخ كخطاب منهجي ينتج المؤرخون مصادرا من طرف عدة حوامل جديدة تنازعه الشرعية، وأصبح التاريخ بعبارة بيير نورا "ينتج كثيرا لكنه لا يقنع إلا قليلا"، ويزداد الأمر صعوبة كلما انتقلنا بالمصوغة التعلمية نحو مستوى تعليمي آخر، تختلف معه الفروق السيكولوجية والبيداغوجية للمتعلمين، وكلما انتقلنا في الحقب، فهل يمكن مثلا تجريبها في تاريخ الزمن الراهن، من حيث هو زمن فائر، وقريب من الذاكرة أكثر منه إلى التاريخ، وهل التحقيب يحتاج بدوره إلى مسافة زمنية بين الذات والموضوع، وفقا لقواعد الوضعانيين؟ أم أنه يمكننا تحقيب وقائع مستجدة؟

5- التحقيب التاريخي وجاذبية القرن التاسع عشر:

حينما نقرأ المنجز الاستوغرافي برحاب الجامعة المغربية[117]، تقودنا الحصيلة إلى تسجيل ملاحظة أساسية: فمن الاستعمار إلى جذور الاستعمار ومن الحركة الوطنية الى أصول الوعي الوطني[118] ، فهل تعكس هذه الرؤية الاسترجاعية للزمن عن همّ تحقيبي لدى مختصي الزمن؟

---

[117]- يمكن رصد ثلاث اتجاهات أساسية تحكمت في الانتاج الاستوغرافي بالجامعة المغربية منذ الاستقلال : أولا تحقيق المتون التاريخية، وثانيا الاهتمام بالتاريخ العلائقي، وثالثا دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وهي تتوزع بالشكل التالي:
192 رسالة وأطروحة تهم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بنسبة 42,67%.

لقد مارس القرن التاسع عشر هيمنته وجاذبيته على عموم الباحثين، وهو ما تعكسه الأبحاث المونوغرافية التي تناسلت من رحم أطروحة أحمد التوفيق "اينولتان" والتي قدمت مسحا شاملا لجغرافية المجال المغربي بكل مكوناته الأساسية، فهل يعني انهجاس محمد صهود بتحقيب القرن التاسع نابع من توفر مادة أرشيفية كافية لتتبع الموضوع؟، وهل يمكن مثلا تحقيب فترة تاريخ الحماية التي لاتزال لم يحظ باهتمام كاف من طرف الباحثين المغاربة في ظل هيمنة الدراسات الأجنبية لكل من دانييل ريفي ووليام هوينسطن وبيير فيرمورين؟ وماذا عن تاريخ الزمن الراهن الذي بدأ يفرض نفسه في سياق جدل التاريخ والذاكرة في الاستوغرافيا المغربية؟

وختاما، يسدي هذا الكتاب خدمات جليلة لكل المهتمين بحقل المعرفة التاريخية، سواء كان مؤرخا احترافيا، أو مدرسا ديداكتيكيا، بل ويمكّن من إعادة التفكير في موضوع التحقيب التاريخي على ضوء المراجعات الابستمولوجية والمنهجية التي شهدها التاريخ من لحظة التاريخ الوضعاني مع شارل سينوبوس وفيكتور لانغلوا إلى مرحلة الحوليات مع مارك بلوك ولوسيان فيفر وفرناند بروديل إلى لحظة ظهور مدرسة التاريخ الجديد مع جاك لوغوف وجورج دوبي وآخرين، كما يتناغم في السياق التربوي المغربي مع بيداغوجية الكفايات المعتمدة في منهاج التدريس بالمغرب، بل ويفتح نافدة مهمة على مجال الممارسة البيداغوجية لتدريس التاريخ في السلك الثانوي التأهيلي من خلال إعداد مصوغة تعلمية توجيهية تنقل التحقيب من منجز ميكانيكي نحو مفهمة وبناء على ضوء الاشكالية التحقيبية، مما يجعلنا نقر بأن هذا الكتاب يحدث فعفعة في مجال التحقيب التاريخي، وينقلب على كل الأصنام التحقيبية المعتادة.

المراجع المعتمدة:

بالعربية:

1- محمد صهود، التحقيب التاريخي، اسهام في التأصيل الابستمولوجي والمنهجي، منشورات جمعية البحث العلمي والتوثيق، مطابع الرباط نت،2016.

2- البشير تامر، مساهمة في ديداكتيكية الفكر التاريخي: اقتراح نموذج ديداكتيكي لتعلم مفهوم الزمن التاريخي في السنة الثالثة ثانوي إعدادي، اطروحة لنيل دكتوراه الدولة علوم التربية، تحت اشراف امحمد الزعيمي، كلية علوم التربية، الرباط، السنة الجامعية: 2004 /2005.

107 رسالة وأطروحة تهم التاريخ السياسي بنسبة 23,77%.
90 رسالة واطروحة تهم التاريخ الديني والثقافي بنسبة 20%.
61 رسالة واطروحة تهم تحقيق النصوص المخطوطة بنسبة 13,56%.
انظر كتاب محمد حبيدة، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الطبعة الاولى، 2015، ص،36.
[118]- عبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،2012، ص 111

3- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005.

4-محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1989.

5- محمد حواش، ملاحظات واجتهادات حول مسألة التحقيب في التاريخ العربي، ضمن ندوة "التحقيب، التقليد، القطيعة والسيرورة"، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1997.

6- محمد فتحة، "تدريس تاريخ العصر الوسيط ومسألة التحقيب"، ضمن ندوة " التحقيب في الكتابة التاريخية المغاربية، مراكش 29/26 ماي 2005، تونس 23/21 نوفمبر 2005.

7- أحمد التوفيق في مقال له يحمل عنوان : "تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر ، أفكار في التحقيب " مجلة المشروع ،الرباط ،العدد 9 ،السنة 1988.

10- محمد حبيدة، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الطبعة الاولى، 2015، ص،36.

11- عبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،2012، ص 111

12- جماعة من المؤلفين "تاريخ المغرب: تحيين وتركيب" إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011.

13- ندوة " إشكال التحقيب " ، 1996.

14- ندوة حول "التحقيب: التقليد ، القطيعة ، السيرورة "،1997.

15 - جماعة من المؤلفين "تاريخ المغرب: تحيين وتركيب" إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011.

بالفرنسية:

16- Henri Moniot, Didactique de l'histoire, Nathan, 1993 ; et" l'imaginaire peridiasateur"in Science technique et imaginaire: De la fiction a l'invention, de l'invention a la fiction. Acte de 12 eme journée internationales sur la communication, l'éducation et la culture scientifique et industrielles centre jean franco Chamonix, 1990.

17- Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire, Paris, Seuil, 1979.

18- Henri -Irénée Marrou, De la connaissance historique, Paris, Edition du seuil, 1975.

19- George Duby, l'économie rural et la vie des compagnes dans l'occident médiéval, 2 vol, paris, 1962.

20- G. Hodgson et S. Marschal, l'islam dans l'histoire mondiale, Texte réunis, Traduit de l'américain, et préface par Abdeslam Cheddadi, Sindibab, Actes du sud pour la traduction française, 1998.

21-M. Bloch, Apologie pour l'histoire ou métier de l'historiens, paris, Armand Colin, 1964.

22-Michelle de Certeau, l'écriture de l'histoire, paris, 1975.

23-M. Hassani Idrisi, La pensée historienne et l'apprentissage de l'histoire, Paris, le Harmattan, 2005.

قضايا من الأدب المغربي







ملامح من الأدب النسوي في شمال المغرب
دابو الغمارية نموذجا

المودن موسى

باحث في الأدب المغربي

تقديم:

لقد عرف المغرب بروز العديد من الوجوه النسائية التي عرفت بالشدة والشهرة والقوة والبطش، وقد كان لها من الصبغة الأسطورية أكثر من الواقع المعاش المفترض، وفي هذا الإطار جرنا البحث العميق للتراث المغربي الشمالي للحديث عن شخصية غمارية مشهورة، كانت من أخطر نساء هذه المنطقة وأشدهم تأثيرا في المجتمع الغماري في تلك الفترة، هذه الشخصية التي اكتسبت زخما كبيرا لارتباط اسمها بالمتنبي الشهير، الذي سمي بحاميم المتنبي، الذي سمي الجبل جبل حاميم على اسمه، والذي شغل المؤرخين بدعوته وتنبئه.

حيث سنحاول الإجابة على عدة فرضيات تنطلق من مكانة المرأة الغمارية في المجتمع الغماري، ومرورا بالتأثير الذي عكسته المرأة الغمارية على الجوانب الحضارية والثقافية للمجتمع

الغماري، مرورا بأهم ما تركته لنا المصادر التاريخية من قصص هؤلاء، وانتهاء بواجب المؤرخين اتجاه التعريف بالأدب الغماري الغائبة خصائصه، وجوانب كثيرة من لمحاته الموغلة في القدم.

أولا: المرأة المغربية التاريخ المزهر:

- **خصوصية المرأة المغربية بالعموم والغمارية بالخصوص:**

لقد كان للمرأة المغربية دور مهم في المجتمع المغربي، سواء ارتبط الأمر بداخل المجتمع الراقي أو في إطار المجتمع البسيط، وقد عرف المجتمع المغربي قيام نماذج من هؤلاء اللذين أثروا بشكل كبير في مجريات السياسة العامة والخاصة للبد، ومن أبرز هؤلاء اللذين أنار نجمهم في سماء الوطن نذكر على سبيل المثال لا الحصر، السيدة فاطمة الفهرية بانية المسجد الأعظم بفاس، واخناثة بكار، زيجة المولى إسماعيل بمكناس، وأميرة الإمارة الراشدية بشمال المغرب السيدة الحرة، وغيرهم من النماذج الأفذاذ اللذين أثروا في الكثير من مجريات الأحداث العامة والخاصة، وأسهموا بشكل جلي في التأثير فيها، سواء من وراء ستار دهاليز الحريم، أو عن طريق الحكم المباشر.

وقد كانت المرأة في الشمال المغربي أكثر تأثيرا وأكثر حرصا على تهييئ الأجيال والنهوض بكل ما يتعلق بمجتمعها، كما كان لها دور أساس في الحفاظ على بنية الأسرة الاجتماعية والاقتصادية وكذا التعليمية، ويشهد الكثير من علماء هذه المنطقة على هذا الدور المحوري من جهة، وعلى الأهمية الي يوليها الرجل الغماري لها من جهة أخرى.

وقد برز دور المرأة الغمارية وتقوى دورها المحوري مع ظهور الدولة الراشدية، حيث حكمت السيدة الحرة منطقة الشمال في أغلبها، وبسطت سيطرتها على جميع بساط المنطقة ومرتفعاتها، وقادة الجهاد البري والبحري على المستعمر الإسباني والبرتغالي، وسطرت البطولات الخالدات، في الكثير من ساحات الحرب، وأيضا دونت الكثير من بطولاتها في مخطوطات المكتبات الغربية وغريمتها المشرقية، وتحدث عنها الكثير من الأقلام الحديثة، التي جعلت منها المرأة الحديدية التي لم تخضع للكثير من مؤامرات وتغرير الأعداء.

- تأثير المرأة الغمارية على الجوانب الحضارية للقبيلة:

لقد لعبت المرأة الغمارية دورا مهما في التأثير في الكثير من خصوصيات القبيلة ومفاصلها، التي غيرت الكثير من الخصوصيات المجتمعاتية والثقافية والاقتصادية للقبيلة، وتركت بصماتها على تاريخ القبيلة وخصوصياتها، بل وتجاوزت الأمر لتكون قائدة القبيلة، ونفسها الروحي، وقدوة رجالاتها ونسائها، وكانت ترياقا لمآسي أبنائها، ومحفزا للاستمرار في كثير من فترات انهيار أجزاء من حضارة كيانها.

1: على المستوى الثقافي:

إن من أهم القضايا التي شغلت المؤرخين في قضية التأريخ لمنطقة الشمال ومجتمعها المنغلق في الكثير من خصوصياته، هو نزوع أهله إلى الشعوذة والسحر، وهذا جلي من خلال المرويات التي جاءت على لسان هؤلاء، إلا أن الحقيقة تعكس أمورا متغيرة، حيث أن هذه القبيلة كانت تعرف حركة علمية متقدمة، في جبالها المنيعة. وظهور العديد من نساء المنطقة اللذين تمكنوا من العلوم ومن الكثير من أبجدياتها، لخير مثال على هذا الأمر، ونبوغ نساء المنطقة في الميادين العلمية والثقافية لأكبر دليلا على هذا الأمر، ورغم أن وصف نسوة المنطقة بامتهانهن لصناعة السمياء والكيمياء بغرض القدح والتقليل من الأهمية، إلا أنه كان برهانا جليا على نبوغ المرأة الغمارية وتفوقها الكبير في طلب العلم، وأيضا في تدريسه.

2: على المستوى الاقتصادي:

لقد أسهمت المرأة الغمارية بشكل فعال في إثراء الاقتصاد الغماري، وتطوير إنتاجياته عبر التاريخ الإنساني، وذلك لاعتبارات عديدة ومختلفة، بداية من الدور الذي تلعبه داخل الأسرة، وانتهاء بالدور التسويقي للمنتج داخل المجتمع، ولهذا كانت المرأة الغمارية نقطة ارتكاز تتراكم عليها جل الوظائف، من اعتناء بالحقول والماشية، وانتهاء بتسويق المنتجات الطبيعية والحيوانية.

3: على المستوى السياسي:

كما أن للمرأة الغمارية أدوار طلائعية في الكثير من جوانب الأسرة والمجتمع، فإن أدوارها امتدت لتصل إلى ميادين حساسة في المجتمع، من قبيل التحكم في السياسة الداخلية والخارجية، وأيضا التحكم في القضاء والتحكيم والأحكام، وكانت المرأة عبر مراحل مختلفة مضطلعة ومحيطة بخصوصيات كل هذه الأمور، وذلك بسبب العادات التي كانت تحبذ تعليم المرأة، وتحررها من الكثير من القيود التي كانت يفرضها العرف والتقاليد والدين، في باقي مناطق القبيلة الأخيرة.



وقد برزت عدة وجوه نسوية في هذه المنطقة، حيث كان لها دور مهم في بلورت المناخ السياسي في المنطقة، وعملت على ترسيخ مبادئ السياسة العامة والخاصة، ولما لا قلبها في كثير من اللحظات الحاسمة، وساهمت بشكل جلي في تدبير المناخ العام السياسي للمنطقة، وإعدادها لكل ما قد يخل بموازين السياسة فيها.

ثانيا: دابو الشخصية الغمارية المبهمة:

- **دابوا المرأة المقدسة:**

إن الحديث عن هذه الشخصية المأثرة في التاريخ الغماري من جهة، والمبهمة في كثير من تفاصيل الحياة التاريخية من جهة كبرى، لهو من أبرز الأمور التي حثتنا على وجوب تعرية الكثير من تفاصيل تاريخ لم يبقى من مصادره سوى القليل النادر، والذي شوه الكثير من تفاصيله، وقلبت الكثير من حقائقه.

وفي هذا الإطار صادفتنا شخصية مهمة كانت لها أثر بليغ على الساكنة الغمارية، حيث كانت مقدسة إلى درجة العبادة، وهي شخصية دابو الغمارية، التي تركت بصمة غريبة على التاريخ الغماري، لارتباطها بأخيها حميم المتنبي، الذي اتخذ من جبال غمارة معقلا له ولدعوته المثيرة التي سطرت كثير من مضامينها، على شكل قالب هزلي بعيد كل البعد عن النقد البناء التاريخي.

وحسب الروايات التاريخية التي سطرت هذه الحكاية، فإن هذه الشخصية العجيبة كانت تتمتع بقدرات خاصة، لاستمالتها للقوى العليا، ولاشتغالها بالسحر والشعودة، ولإتقانها لعلوم السيماء والكيمياء، وغيرها من العلوم التي أهلتها للقيادة والتأثير في المجتمع الغماري بشكل غريب، حيث أرجع المؤرخون هذا التأثير إلا تحكمها بقوى الطبيعة، وبتسخيرها لهذه القوى من أجل التأثير في ميكانزمات القدر، وتسخير المجريات الحياتية لهم.

وحسب المصادر التاريخية التي لم تذكر سوى نبذة صغيرة عن هذه الشخصية التي يحوم حولها الكثير من الغموض، فإن هذه الشخصية اختلف في تسميتها، فقد ذكرها البكري في كتابه على أساس اسم داجو، وعند ابن خلدون على أساس دابو، إلا أن استنساخ نفس المروية يجعل من وجود الشخصية أمرا غير مستبعد، إلا أننا لا نجد في هذه المرويات الكثير عنها.

إلا أن الواقع يخفي أكثر مما يقال، وكل ما لدينا من معلومات تثبت أنها شخصية متعلمة ومقدسة، لها تأثير على مجتمعها، ويستعين بها في كل الحروب، وأيضا في فترات الجفاف والقحط، وكذلك أيضا كانت ذات جمال عجيب باهر تسحر الجميع، وأيضا كانت ساحرة كباقي

سحرة مجتمعها، الذي لم يكونوا يتقنون سوى السحر، كما أشار أحد المؤرخين حينما وصف نساء هذه المناطق بأصحاب السحر، واغلب اللذين ينتحلونه هم النساء العواتق.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الأهمية البالغة للمرأة في المجتمع الغماري، حيث أصبحت هذه الشخصية بمثابة إلاه في قناعة المجتمع الغماري، الذي عرف بتعاطيه للعلم الشرعي من جهة، والعلوم المصاحبة له من جهة أخرى.

- **جدلية الوجود الفعلي لهذه الشخصيات:**

إن الحديث عن الوجود الفعلي لهذه الشخصيات يرتبط أساسا بالنظرة التي كان يوليها المؤرخون لهذه المناطق المنيعة التي عرفت تاريخيا بالنزعة الاستقلالية، والثورة الدائمة ضد كل ما هو أت.

هذه النزعة التي تجعلنا نشك في الكثير من المسلمات التاريخية، التي دأب المؤرخون على إلصاقها لهذه القبائل التي كانت تشهد حركة علمية متطورة في جميع المجالات وبشهادة الجميع، وهذا ما يدحض فرضية انتشار الجهالة والتحجر والتخلف في هذه الجبال، فكيف يا ترى تنتشر الجهالة في هذا المجتمع وأغلب نساءه يتقنون علوما تعتبر من أصعب العلوم، كالسيماء والكيمياء، التي هي من مبادئ الطب القديم، ومن أهم علوم ذاك العصر.

إن نبوغ أهل المنطقة في الطب لأكبر دليل على سقوط فرضية الجهل والتخلف المنسوبة من طرف بعض المؤرخين اللذين حقدوا على هذه المناطق بعمد أو بغير عمد، وإنها أيضا لأكبر دليل على وجود حركة علمية وثقافية كبيرة في هذه المناطق قبل وبعد الإسلام، وتشهد حواضر سبتة وغيرها على هذه الأمور، وتؤكدها الوجود الكثيف للعلم والعلماء المتخرجين منها.

وما التناقض الحاصل في وصف القبيلة ورجالاتها إلا خير دليل على هذا الأمر، فمن وصفها للحجر الأساس لاستقرار الإسلام في المغرب وفتح بلاد الأندلس، ونبوغ رجالتها وأقطابها، إلى وصفها بمعقل الخوارج والثورة والفتن والاضطرابات، إلا أن هذا التناقض الواضح في أراء المؤرخين لا يقلل من قيمتها بل يجعل من مرويات المؤرخين مجرد ترهات لا غير، بل ويؤكد عدم حيادية هؤلاء وخاصة حينما يصفونها بوكر الجهالة والتخلف وبمعقل السحر والكهانة.

إن عدم حيادية المؤرخين يجعلنا نؤمن بفقدان الكثير من خصوصيات هذه القبيلة وتاريخها المجيد، بل يجعلنا أيضا نميط اللثام عن واقعها المخفي، وإذا كانت هذه المرويات حقا لها صبغة أصلية واقعية، فلملا يا ترى هذا القدح المتعمد والغريب لرجالات القبيلة، ولما هذا الوصف الغريب لكل من ثار فيها، فهل يا ترى كان إلصاق قضية ادعاء النبوة بهم كانت من أجل تشويه الشخصيات

التي كان لها أثر مجيد في تاريخ الأمة المغربية، أمر متعمدا من أجل محو التاريخ وتزيف الحقائق، وتغيير الوقائع التي كانت مستتبة بتلك المنطقة المنعزلة، كما حدث مع المرابطين والموحدين وغيرهم، ممن عمدوا إلى تلويث تاريخ من سبقوهم، ومحاولة طمس الكثير من معالمه المؤثرة، والتي مازالت مبهمة إلى هذا الوقت، لقلة المصادر، ولكثرة المرويات الغير صحيحة عن تلك الفترة.

- **البعد الأسطوري والتاريخي لبعض هذه الشخصيات:**

إن ما يجعلنا نؤمن بالبعد الأسطوري لهذه الشخصيات التي كان لها حضور مهم ومميز في تلك الفترة، هو ما يحوم حولها من شكوك عديدة، من مسامياتها إلى التهم الموجهة إليها، إلى قدراتها الغير طبيعية، وانتهاء بالتقديس الغريب لها.

إن هذه الشكوك التي تعتري هذه الشخصيات، تجعلنا نفترض أن القضية ترتبط بما هو أقدم من هذه الفترة، ولما لا أقدم من فترة الدخول الإسلامي، حيث كانت الديانات الوثنية مستتبة في تلك المناطق وبشكل جلي، وبالتالي فإن فرضية تمازج الثقافة الإسلامية والثقافة الوثنية أمر واقع ولابد منه، بل ويجعل من فرضية البعد الوثني للمرويات التاريخية أمرا أكثر واقعا، ولما لا أكبر دليلا على فقدان الخصوصية الثقافية لهذه المناطق، التي اختزنتها مثل هذه المرويات في كثير من حيثياتها.

إن فرضية انتماء هذه الأسماء للثقافة الوثنية أصبح أمرا واقعا، وإن النبش في خصوصيات هذه المرويات أصبح ملحا، وإن التأكيد على نسبية الكثير من المرويات التاريخية أصبح من مسلمات البحث التاريخي، وإلا فلما هذا الخلط الشديد بين خصوصيات الثقافة القبلية، وبين ثوابتها التاريخية، وإذا كان هذا التضمين ملحا، فهل يا ترى يكون ملأ للفراغات التاريخية التي لا يعرف عنها الكثير، أم أن الأمر مجرد محاولة لطمس ما قد يعتبر في تلك الفترة تهديدا لوجود الدول وشرعيتها.

وإن مما لاشك فيه أن البعد الأسطوري طغى على كثير من ملامح هذا التضمين التاريخي، هذا التضمين الذي ترك شرخا واسعا في ما يخص الانتقال السلس للإنسان الأمازيغي، من ثقافة الوثنية إلى ثقافة الإسلام، وبالضبط من ثقافة تقديس قوى الطبيعة، إلى ثقافة تقديس الإله الواحد، هذا الانتقال الذي ترك بصمات عديدة عن شكل الثقافة الوثنية القديمة، التي لا نملك الكثير من التفاصيل عنها، ولعل هذه الشخصية جزء من هذا التاريخ المجهول، الذي يختزل تاريخا عميقا مختلفا، تركزت بعض مظاهره في تقديس الأماكن والشخصيات والحامات والغابات.



فهل يا ترى نحن أمام أجزاء مبعثرة من التاريخ القديم الذي عجز الإنسان العربي الوافد على لملمت الكثير من تفاصيله، وعمد إلى نسج بعض المرويات من خياله تارة، وإلى تدوين المرويات المتواترة عن المجتمع، وتضمينها ضمن قالب إسلامي معين تارة أخرى.

كل هذه المعطيات تفتح الباب أمام الباحثين من أجل إعادة الاعتبار لهذه الأدبيات من جهة، وإلى إعادة فهم الكثير من تفاصيلها الموجودة بين السطور من جهة أخرى، من أجل فهم أدق لمضامينها، واستجلابا للفهم الدقيق لواقعها:

خلاصة:

إن مما لا شك فيه أن تأثير المرأة الغمارية في مجتمعها تجاوز كل حدود الفهم العادي لدور المرأة المغربية، وإن محاولة إزالة بعض من خبايا هذه الخصوصية التي غطت تفاصيل عدة من تراثنا المنسي، قادت ومازالت تقود الوجوه إلى فهم بنيوي لبنية المجتمع الغماري في الفترات التاريخية السابقة، وكذا تأويل صحيح لنصوص التأريخ السابقة، التي ما زلت في كثير مضامينها عاجزة عن الإحاطة وبشكل سليم بكل الخبايا الصحيحة لهذا المجتمع.

وإنه لمن الواجب على كل فرد له غيرة على تاريخ بلاده ومجتمعه، أن يسهم ولو بشكل جزئي في إماطة اللثام عن خبايا هذه الخصوصية وكنوزها، ولما المشاركة الفعلية في إعادة بناء هذا الصرح العظيم من الخصوصية الغائبة.

الهوامش:

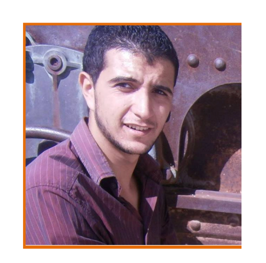
- المغرب عبر التاريخ، لمؤلفه ابراهيم حركات، الجزء الأول، الطبعة لأولى، سنة 2009م، صدر عن دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء.
- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تأليف أبي عبيد البكري، قامت بنشره دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- مقدمة ابن خلدون، المسماة ديوان المبتدأ والخبر، لمؤلفها ابن خلدون،ضبط ومراجعة الأستاذين خليل شحاذة، وسهيل زكار، منشورات دار الفكر، بيروت لبنان، سنة 2001.
- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، لمؤلفه الناصري، الجزء الأول، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: 2007م.







شمال المغرب من خلال رحلات القرن التاسع عشر: شارل دو فوكو نموذجا



محمد العاقل
باحث في تاريخ المغرب

تقديم عام

لعبت الرحلة طيلة التاريخ البشري دورا أساسيا في انتقال القيم الحضارية و الثقافية، و انتشارها بين الأمم و الشعوب منذ أقدم العصور، مما جعل النخب الحاكمة تشجع الرحالة المنتمين إلى بلدانها على كتابة تقارير رحلاتهم. الشيء الذي أعطى للرحلة إمكانية الإحاطة بواقع البلد المزار، و أحواله السياسية و العسكرية والعلمية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و الفنية. و لهذا يمكن للباحث أن يدرس الرحلة من مقاربات و زوايا مختلفة : من زاوية كونها مصدرا للتاريخ، و أثرا أدبيا و فكريا و فنيا، و وثيقة سوسيولوجية، و مصدرا لتتبع تطور الذهنيات و العقليات عبر الزمان و المكان بحكم أن المغرب هو أكثر البلدان العربية الاسلامية قربا من أوربا،

فإنه من المنطقي أن تتوفر له ما لم يكن لغيره من بلدان العالم العربي الاسلامي، من حيث العلاقات السياسية و الاقتصادية مع أوربا الممتدة عبر قرون، و طابع الندية الذي وسم هذه العلاقات على المستوى السياسي و الديبلوماسي خلال فترات قوة الدولة المغربية، و بهذا فإن كل هذه المعطيات التاريخية و الجغرافية انعكست بشكل مباشر على أدب الرحلة في المغرب .

يمكننا إعتبار مغرب القرن 19 نتاج لمجموعة من التطورات سواء الداخلية منها أو الخارجية، فلقد شكل الاصطدام بالأجنبي محطة تاريخية استوقفت الرحالة المغاربة كثيرا خلال هذه الفترة خاصة على مستوى نظرة الأنا المغربية للآخر الأجنبي، و التي كرست ضعف الأنا، و انهزاميته في مقابل تفوق الآخر على جميع المستويات، و استيعابه لمعطيات المرحلة، و مواكبته للتطور العالمي اقتصاديا[119]

ولقد مكث بعض السفراء الأوروبيين بالمغرب مدة طويلة. وكان منهم سفراء دائمون أحياناً . تميزوا بالكفاءة وإتقان اللغات. واستفادوا من تجارب زملائهم السابقين، ومنهم من كان له تكوين دبلوماسي وأكاديمي رفيع المستوى، سيطرت عليهم روح المغامرة، ونجح أغلبهم في الهيئة التنكرية التي تقمصوها، وكان منهم السفراء والكتّاب والجواسيس والعسكريون وغيرهم حسب طبيعة المهام الموكولة إليهم، وهذا خلاف للمبعوثين من المغاربة إلى أوروبا الذين مكثوا مدة قصيرة تناسبت مع سفارتهم المؤقتة، ولم يكن لدى جلهم أي تكوين أو إتقان للغات، إذ كانوا يستعينون باليهود كمترجمين، وغابت عنهم روح المغامرة، فقد غلب عليهم طابع الخوف والترقب والتوجس والتردد والإحساس بالغربة والوحدة[120]

فالعلاقات بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامي لها إمتداد تاريخي عميق إذ إمتازات بطابع إقتصادي حيث هيمنت المبادلات التجارية عليها[121] منذ أقدم العصور.

فمن خلال هذه المقاربة سنعرج على بعض من الرحلات التي كان المغرب وجهتها خلال القرن التاسع عشر وفق مخططات مدروسة بغية التوصل إلى دراسة البلد، هذا الأخير الذي

---

[119] حسام هاب، "رؤية الأنا للآخر في الخطاب السفاري المغربي خلال القرن 19 م : تحفة الملك العزيز بمملكة باريز- للحاج ادريس بن الوزير سيدي محمد ابن ادريس العمراوي نموذجا" **الحوار المتمدن-العدد: 3601 - 2012 / 1 / 8 - 09:25**

[120] خالد فؤاد طحطح، "نماذج من الرحلات الأوروبية إلى المغرب خلال العصر الحديث" **مجلة الرافد 16 12-2010**

[121] هنا نشير إلى أن مكاتب الدول الأوربية تزخر بكم هائل من هذه النصوص وأقدم نص عثر عليه يعود لسنة 1157 م، وهي تتنوع من حيث لغة كتابتها بين الإيطالية، والاتينية، والعربية. وقد قام كل من السيد لامبير والدكتور روبيريراون بفهرست للرحلات المتجهة للمغرب نشرت في لندن حددوا فيها حوالي 2062 كتاب رحلة، وقد أوصلها اللكتبي البارزي جونتير سنة 1914 إلى 2285 وبخصوص الفهرست ذكر الأستاذ عبد الله بن عبد العزيز أنه يتوفر على أكثر من هذا العدد في خزانته أنظر كتاب أنظر كتاب : **الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ** عبد العزيز بن عبد الله دار المعرفة ط الأولى 2001 الرباط ص 72

كانت قد إنهالت عليه مجموعة من النكسات من كل الجوانب خصوصا بعد الحملة التي كان يشنها نابليون بونابارت في أوربا والشرق الإسلامي بعد أن كان قد أحكم قبضته على فرنسا وإسبانيا .

ففي ثمانينات القرن 19 كتب أحد الجغرافيين الفرنسيين وهو " أونيسم ريكسيل " onésime reclus" متحدثا عن بلاد المغرب " المغرب أحد بلدان العالم المجهولة لنا إذ بالرغم من وجوده قيد كيلومترات قليلة من إسبانيا، تلك التي هي جزء من أوروبا، فإن الأوربيين بمن يفخرون بإنحدارهم من أصلاب مغاربة وقرطبة وغرناطة"[122]

هذا الخطاب يحمل في طياته مذهبا متعصبا رغم أنه إعتراف ضمني من الأوربي بجهله بالمغرب بتاتا، ما سيحدوا بالعديد من عشاق الرحلة والمغامرة من التوجه صوب هذه البلاد، مشحونين من طرف دولهم ومزودين بمال وعتاد مادي وفكري لإنجاح المهمة المطلوبة. وفي هذا السياق تأتي رحلة علي باي العباسي domingo badia y leblich الإسباني الذي تنكر في زي أمير حلبي وتجول في ربوع العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر. والنموذج الثاني ممثل في شارل دوفوكو v.charles de foucauld والذي زار المغرب في نهاية القرن التاسع شرا متنكرا في زي راهب يهودي ،فجال بلاد المغرب ودون ملاحظاته بكل تدقيق.

فبعد أن أحكمت فرنسا قبضتها على الجزائر 1830 بدأت تنظر للجار القريب منها وهو المغرب هذا الجار الذي كان يمثل لفرنسا طريدة صعبة المرام فدخلت فرنسا مع المغرب في مناوشات بغية إختبار ردة الفعل، نتج عن ذلك معركة إيسلي 1844 والتي شكلت نكسة كبرى للجيش المغربي، حيث أبانت المعركة عن ضعف المؤسسة العسكرية للمغرب وعدم تنظيمها[123] ،فقد أزالت المعركة حجاب الهيبة الذي كان للأوروبيين على المغرب، هذا الذي ألحق شر هزيمة بالبرتغال في معركة واد المخازن، وبخسارة المغرب أمام الإسبان تأكد ضعف الدولة المغربة، وإغتنموا الأمر فرصة للتعرف على البلاد التي ظلت لقرون ممتنعة عنهم. وفي هذا الشأن تأتي رحلة الفرنسي شارل دوفوكو charles de foucauld.الذي زار المغرب في نهاية القرن التاسع عشرا معبرا عن هذا الطرح، مبرزا من خلال ما سطره من مشاهدات حرص حكومته على إنجاح "المخطط الكبير".

---

[122] وردت هذه القولة ضمن كتاب rivet daniel - lyautey et l’institution du protectorat francais au maroc (1912-1925) paris 1988

[123] أنظر أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء9 .الدار البيضاء. دار الكتاب 1956. صص 52-53 فهو يورد مجموعة من الشواهد حول المعركة وكيف كان الجيش المغربي ينقاد في بطولات بدل الجيش الفرنسي الذي كان محكم التنظيم

ولد شارل دوفوفكو بستراسبورغ سنة 1858 بفرنسا وسط عائلة أرستقراطية ثرية وتشتهر بعلاقاتها العسكرية، توفي والده وهو لازال طفلا صغيرا، تخرج من المدرسة العسكرية وهو إبن العشرين وانخرط في الجيش لمدة ثلاث سنوات، أرسل سنة 1881 وهو ضابط في الثالثة والعشرين من عمره إلى كتيبة في بلدة ستيف شمال الجزائر ضمن الجيش الفرنسي المكلف بإدارة جزء كبير من الجزائر، ومن هناك سيحاول زيارة المغرب ليصل إلى مدينة طنجة يوم 20 يونيو 1883 متنكرا في زي يهودي، حاملا معه دفترا صغيرا من 5*5 سم وقلم رصاص قصيرا يسجل به ملاحظاته و المسائل والأيام والمراحل التي قطعها، وآلة علمية للإشتغال في الميدان. إنه موضوعي ودقيق في ملاحظاته الجغرافية[124] وبهذه الوسائل البسيطة إستطاع أن يخترق المغرب من شماله إلى جنوبه، ومن جنوبه في إتجاه شرقه قاطعا مايزيد عن 3000 كلم في مدة لا تتجاوز 11 شهرا، مخترقا فيها الأودية والسهول الوعرة، مبتعدا عن المدن. وكان لإختياره هذا دواع سنقف عليها لاحقا.

الوصول لطنجة وترتيبات الرحلة

يبدأ شارل دو فوفكو رحلته من مدينة طنجة يقول في هذا الصدد " غادرت السفينة يوم 20 جوان 1883 صحبة المربي مردوشي، لم يكن لدي أي شيء جديد أريد الوقوف عليه في هذه المدينة المعروفة من خلال عدة كتابات سابقة فقد كنت أتعجل مغادرتها. فمحطتي الأولى لابد أن تكون مدينة تطوان."[125] وهنا يشير إلى أن المسافة الفاصلة بين مدينة طنجة وتطوان قصيرة لا تتعدى مسيرة يوم واحد والطريق آمنة. وسيسجل لنا من خلال نصه إعترافا ىبما كانت فرنسا تقدم له من دعم وتسهيلات لإستكمال رحلته، إذ يحدثنا عن الوزير المقيم في طنجة أرديكا[126] والذي وفر له الظروف المواتية للرحلة، وأيضا زوده بما سيحتاجه في المغرب يقول " فرغم قصر الوقت الذي قضيته في طنجة فإن ذلك كان كافيا ليصدر أرديكا وزير فرنسا المقيم في طنجة، الذي تفضل تيرمان الحاكم العام للجزائر فأوصاه بي، أوامره بتهيئ رسائل إلى وكلائه قصد تسهيل أعمالي المقبلة في المغرب. كما أمر بتسليمي رسالة من طرف مولاي عبد السلام، شريف وزان

---

[124] شارل دو فوفكو **التعرف على المغرب1883-1884** . ترجمة المختار بلعربي. مطبعة النجاح الجديدة . ط 1 .1999 الجزء الأول. ص 5

[125] م.س. ص.11

[126] تم تعين أورديكا ordéga كوزير مفوض لفرنسا بطنجة سنة 1881 أي بعد سنة واحدة من مؤتمر مدريد، وفور تعينه في المغرب باشر أورديغا مجموعة من نشاطاته الرامية إلى خلق هيمنة فرنسية على المغرب، وفي هذا الصدد نجده يصرح لزميله الإيطالي سكوفاسو scovasso بأن له رغبة قوية أن يكون هو روستان roustan المغرب، هذا الأخير الذي فرض الحماية على تونس. أنظر الأستاذ خالد بن الصغير.**الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية**

الشهير[127]، يأمر هذا الأخير بواسطتها أيا كان من أتباعه أن يوفر لي عونا وحماية، وأخيرا زودني أرديكا بجميع التوصيات التي قد تكون مفيدة لي خلال سفري : لم توجد ولو رسالة واحدة بين هذه الرسائل لم تخدم مصالحي فيما بعد ولهذا كثيرا ما كنت أتذكر- من باب الإعتراف بالجميل- العناية التي كنت موضعها من طرف كل من إهتم بسفري"[128] ففرنسا كانت حريصة على إنجاح الأمر مستعينة بوزرائها المتواجدين خارج التراب الفرنسي و مستغليين لنفوذهم ومعارفهم " شريف وزان على سبيل المثال" ففي هذه الفترة بالضبط كانت تحركات أورديكا في المغرب تقلق كل من بريطانيا عن طريق ممثلها " جون دراموند هاي " وكذلك المخزن والمتمثل في " النائب السلطاني " بركاش" خاصة وأن الطرفان كانا يعتبران تحركات شريف وزان وفرنسا تأتي ضمن مخطط مدروس يهدف إلى ضرب إستقلال المغرب، إلا أن الخطيب إستبعد الأمر وهنا نتسائل لما لم يقف شارل دوفوكو على مسألة حماية فرنسا لشريف وزان ؟؟؟ هل إعتبره أمرا عاديا أم أنه تعمد ذلك ؟؟؟ أم أن الرحلة كانت هي الشغل الشاغل له ؟؟؟ فنجده وعلى وجه السرعة قد إنتقل لوصف ما شاهدته عيناه في الرحلة، مركزا على المجال الطبيعي وبعض الإشارات البشرية.

طريق طنجة تطوان

يصف الطريق بين مدينة طنجة وتطوان مخترقين الوديان المغطية بالدوم، وحقول القمح على حد تعبيره. ويورد لنا في هذا الصدد نصا بالغ الأهمية عن الحياة الفلاحية لأحواز طنجة بقوله " توقفنا في الساعة 9 و 45 دقيقة قرب بعض الأكواخ. قضينا الليلة في هذا المكان[129]. الطريق آمنة خلال النهار، لم تبق كما كانت عليه عند غروب الشمس، الفرسان الخيالة، مدججين بالسلاح، يأخذون مواقعهم عند أبواب القرى، قرب قطعان الماشية على ربوات يراقبون المحاصيل الزراعية من فوقها. يعكر الجوالة حياة الفلاح الضعيف، خاصة في بلاد المخزن. في هذ الحقول

---

[127] بخصوص الزاوية الوزانية فقد إنفردت عن باقي الزوايا، كونها مزجت بين الصوفية والسياسة ما أكسبها نفوذ روحي ومادي. إلا أن الزاوية ستعرف توجها مخالفا لما كانت عليه في السابق، نتيجة لتشجيع الشريف للحرب مع إسبانيا، وأيضا لزواجه من بالإنجليزية إميلي كين. وقد أصدر الأستاذ خالد بكاوي كتابا باللغة الإنجليزية، يتحدث عن قصة الحب والزواج الذي جمعت إميلي ومولاي عبد السلام في كتابه " the british bride of tangier : the extraordinary love story of emily shareef of wazzan" الأمر الذي لم يرق المجتمع المغربي ولا المخزن، فأعتبروا هذا الأمر ردة، وتنصرا. ونتيجة لدعمه لفرنسا تم توشيحه سنة 1876 بوسام ضابط شرفي كبير لفيلق اللفيف الأجنبي، فتواطؤ الشيخ مع فرنسا كان له مبررات شخصية، فقد أدرك أن مصيره يرتبط بإحتمائه بدولة قوية كفرنسا وهو الأمر الذي سيتوج سنة 1883 حيث ربط الزاوية بخدمة الإستعمار، كما جاء على لسان الدكتور مصطفى الريس في جريدة الصباح عدد 26 غشت 2013 في حضرة الشيخ والسلطان : عبد السلام الوزاني ... متصوف إتهمه المخزن بالردة . ولا ننسى أيضا أن بحصول شريف وزان على الحماية الفرنسية كثر أتباعه ومعاونيه، وبذلك زادت قوته ورمزيته الشيئ الذي كان من مصلحة فرنسا أن تستثمره، وقد بررت حمايتها هذه بأنه نابع من ما يخوله البند 16 من مؤتمر مدريد الذي يقر للدول الأوربية ببسط حمايتها للمواطنين المغاربة الذين يقدمون لها منافع، وفرنسا إستغلت الأمر وصرحت بأن حماية شريف وزان هي مكافئة له لخدماته التي ساهمت في حسم الأمور بشأن الحدود المغربية الجزائرية. أنظر خالد بالصغير **الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية** يفصل بالتدقيق في هذه المسألة.

128 شارل دو فوفكو . م.س. ص11.

[129] هذا المكان من الممكن أن يكون منطقة حكامة الحالية، كون الوصف ينطبق عليها. فتوجد بعض البيوت في المنطقة إلى يومنا هذا، فالأمر يبقى مجرد تخمين وليس هنالك دليل قاطع كون الرحالة لم يورد لنا وصف المكان بالضبط اللهم بعض الإشارات التي تصف التلال المحيطة بالمنطقة.

الغنية التي مررت بها يكاد نهب الجوالت من جهة وتشدد بيت مال الدولة لا يتركان للفلاح إلا ما يسد به رمقه."[130]

نسجل هنا بعض الملاحظات المقتضبة حول وصفه لنهر مراح فشارل كان على دراية بما يقع داخل البلاد فهو يصف لنا حالة الفلاح في شمال المغرب وما يعانيه من تسلط الجوالة أي "اللصوص" الذين ينهبون المحاصيل الزراعية بالليل، إذ يصف لنا أصطفاف مجموعة من الأشخاص مدججين بالسلاح لحماية محصولهم. وهذا الأمر يتعارض مع ما وصفه لنا في قوله بأن الطريق آمنة، وهنا نلفت الإنتباه إلى مسألة مهمة تطبع معظم الكتابات الإستعمارية حيث نجدها تحاول أن تخلق نوع من الإزدواجية في تاريخ المغرب وتصوره لنا بأنه عبارة عن بلد ذو طابع إثني متناقض، هذا فضلا عن وصفه لحالة الضرائب في هاته الفترة فيصف "تشدد بيت مال الدولة" فكيف لشخص دخل المغرب منذ يومين يعرف سياسة الدولة تجاه الأهالي؟؟؟ فهذه الإشارات تجعلنا نطرح العديد من التساؤلات حول إستعداد هؤلاء الرحالة لزيارة المغرب. و نشير إلى مسألة ذات أهمية والتي تتمثل في رحلة الإسباني دومنغو باديا domingo badia المنتحل لصفة أمير حلبي إسمه علي باي العباسي هذا الأخير زار المغرب سنة 1803 وقد كان مقربا من الدوائر السياسية في المغرب إلى درجة أن السلطان المولى سليمان أهداه منزل بمكناس، ولما فضح أمره خرج من المغرب قاصدا المشرق العربي. هذا الأخير حينما أنهى مغامرته أهدى نابليون بونبارت خدمة كبيرة، حيث عرفه على أدق التفاصيل بالمغرب فقد أرسل رسالة لبونابارت يشرح له حالة المغرب ويسترسل بأسلوب المبالغة والتمويه، مختتما بتوضيحات حول الطريقة السهلة لغزو المغرب حسب نظره. هذا الأمر الذي لايستبعد أن يكون شارل دوفوكو قد إستفاد منه، أو أن شارل دخل في حوار ونقاش مع السكان المحليين، وإستطاع أن ينزع منهم بعض الإعترافات والتي لم يتردد في كتابتها.

يواصل شارل دو فوفكو رحلته عبر الأودية والجبال التي تغطيها أشجار من الزيتون والضرو ." وهذا مقطع السفح الذي تسلقناه اللحظة. السفح الآخر للجبل، مفرس وعر في البداية، يوصلنا إلى منطقة مشجرة حيث تظهر الزراعة من جديد في قعر الأودية. تنفرج الشعاب شيئا فشيئا وتنبسط جوانب المنحدرات. وأخيرا ها نحن في السهل. حتى الوصول إلى مدينة تطوان ما المنطقة إلا أودية متسعة تغطيها كليا حقول قمح على مد البصر تتدفق بها مياهها العذبة."[131]

---

[130] شارل دو فوفكو . م. س. ص.12

131 شارل دو فوفكو . م. س. ص.12

فوصفه الجغرافي للمنطقة يوحي لنا بتكوينه العميق وبدرايته المتمكنة من الجغرافيا، حيث نجده يصور لنا تضاريس المنطقة بكل دقة محاولا رسم خريطة طبوغرافية للمنطقة، ناهيك عن وقوفه على مختلف أنواع النباتات التي صادفها ويثبتها بإسمها المحلي، الشيئ الذي لانلمسه في الرحالات التي سبقته.

تطوان منطلق الرحلة

يقول شارل دو فوفكو بخصوص دخوله المدينة " على الساعة 9 و 30 دقيقة أبصرنا المدينة تتراءى على شكل أبيض في أفق من جبال عالية مائلة إلى الزرقة. دخلنا المدينة على الساعة 11"[132] ويردف قائلا أنه شاهد الكثير من الناس كما بالأمس إلا أن ما أثاره هو حملهم للسلاح والنساء غير محجبات واصفا بذلك الحقول المجاورة للمدينة وقد أورد وصف دقيقا لواد "بوصفيحة" يقول " صادفت على طول الطريق كله ممرا واحدا صعب السير: إنه جوانب الفج. السطح مترب عموما. يوجد نهر واحد ذو أهمية هو واد بوصفيحة. ضفاف هذا الواد وعرة يتراوح علوها مابين 5 و 6 أمتار. ماء الواد صاف وجار. يصل عرض المكان حيث يجري هذا الماء مابين 8 و 6 أمتار وعمقه من 30 إلى 40 سنتمتر. سرير الوادي من الحصى. يخترق هذا النهر قنطرة ذات عقدين في حالة لابأس بها."[133] هذه هي الطريق التي سلكها الرحالة قبل دخوله لتطوان فهو بذلك سيدخل المدينة من الجنوب الغربي، واصفا كل ما تراه عينيه الثاقبتين في طريقه. إلا أننا هنا نقف وقفة سريعة حول وصفه للطرق وكيف أنه كان يعتمد سلك الطريق الوعرة بخلاف الطرق الأخرى. وهذا الأمر نجد له تفسيران: الأول يتمثل في محاولته لإستكشاف الطرق الوعرة، والتي لا يسلكها إلا المتنصلون. والثاني هو هروبه من اللصوص، ومحاولته رسم مسار جديد للطريق الرابطة بين المدن الكبرى في البلاد. ولم يفته وصفه للغطاء النباتي الذي أثار إنتباهه يردف قائلا " أثار إنتبهاهي أمران، خلال هذا اليوم من السفر: أولهما الماء الطري والجاري، رغم كون الفصل فصل صيف، الذي يخرج من عدد وافر من العيون والجداول والأنهار الصغيرة التي صادفتها، وثاني الأمرين قوة النباتات الخارقة: تحتل الحيز الأكبر من الأرض زراعات غنية ويغطى الأجزاء الغير المزروعة من السطح عشب أخضر يانع ولا يوجد نبات تحيف ولا توجد بقع رملية أو عميقة، وحتى البقع التي تنتشر فيها الصخور مخضرة إذ تخرج النباتات من بين

---

132 نفسه. و من خلال هذا المعطى يتبين لنا أن شارل دوفوكو قطع المسافة الفاصلة بين طنجة وتطوان في مدة زمنية لا تتعدى13 ساعة، طبعا مشيا على الدواب التي كانت قافلته مكونة منها. ولم تتعدى 7 أفراد و 10 دواب حمل.

133 م. س. ص.13

الصخور وتكسوها خضرة."[134] كان هذا وصف سريعا للجوانب المدينة ليبدأ لنا بوصف شكل المدينة من موقعه هذا ـ من الجهة الجنوبية الغربية- يقول " شيدت مدينة تطوان على هضبة صخرية ناتئة من الجانب الأيسر للوادي الذي يحمل نفس الإسم ويحيط بها في أكبر جزء منها. تشرف على المدينة، شمالا وجنوبا، جبال عالية وعند قدمها توجد أجمل بساتين الدنيا تسقيها آلاف الينابيع. للمدينة وأجمل المظاهر التي يمكن للمرء أن يشاهدها"[135] وصفه المقتضب لموضع المدينة فيحددها جغرافيا بأنها شيدت على هضبة صخرية، أي أنه عاين شكل التضاريس والصخور الموجودة في المكان. ويحيط بها وادي و الجبال تحصرها شمالا وجنوبا، بينما يصف بساتين المدينة التي تسقى بآلاف الينابيع[136] لقد كان بتطوان والمداشر التابعة لها رجال ممتازون في هذا النوع من العمل – البستنة – و لبثت البساتين السلطانية بفاس ومراكش تحت إشرافهم مدة غير قليلة من الزمن[137] هنا نشير إلى أن الكثير من الرحالة الذين زاروا مدينة تطوان، يصفون لنا هذه البساتين التي كانت تتواجد بالمدينة[138] منتقلا بعد ذلك إلى وصف المدينة من الداخل وكيف هي منظمة " المدينة ذات بناء متجانس وهي أقل اتساعا من معظم حواضر المغرب. تتجسد تحصيناتها في قصبة مشيدة في الشمال الغربي للمدينة في سور من الآجور علوه 5 أمتار وسمكه 30 أو 40 سنتمترا. توجد بجوار كل أبواب المدينة بعض المدافع التي يحاول وجودها بعث الرعب. تطوان مدينة شاسعة لكن أحيائها الهامشية قليلة السكان وجزئيا في حالة خراب. بالمدينة كثير من المساجد[139] ولكن ليس بها بنايات ملفتة للنظر بإستثناء البرج الرئيسي للمشوار"[140] ويستطرد بوصفه بإقتضاب لمكونات المدينة، حيث وصف الحانب الإقتصادي للحي التجاري وقال بأنه ينتعش يوم الأربعاء، ويصف الملاح اليهودي في تطوان[141] "يوجد بالمدينة ملاح كبير أجمل

---

134 نفسه

135 شارل دو فوفكو . م.س. صص. 13-14

[136] هنالك رسالة سلطانية تتحدث عن وصول الرباعيين الذي أرسلهم قائد تطوان للسلطان، وهم من خيرة الرجال الذين يحسنون البستنة وهذا نص الرسالة " وبعد فقد وصل الرباعان اللذان وجهت لحضرتنا العالية بالله عملا بما أمرناك به وعرفنا ما وصفتهما به وما دفع لهما الأمناء صلة عند سفرهما والسلام . في ربيع الأول عام 1280" محمد داود، **تاريخ تطوان** .المجلد السادس. المطبعة المهدية. تطوان 1966 .ص. 54

[137] محمد داود م. س. ص. 54

[138] نفس الأمر نجده في رحلة الأمير البلوني جون بوتوكي الذي زار مدينة تطوان في 1791 أي قبل شارل دوفو كو ب 100 سنة، وقد صف جون بوتوكي بعبوره مخاضة النهر سارو بين الغرس في دروب تحدها دروب من القصب المرصوص تتخللها نباتات شائكة، وكانت هذه السياجات متقنة الصنع ونضيرة يتقي بها أصحاب الغرس ومحارمهم من أنظار الغرباء أنظر نص الرحلة potocki jan voyage dans l'empier du maroc fait en 1791 وللتوسع في شرحها أنظر مقال الدكتور مصطفى غطيس " تطوان والمجتمع التطواني من خلال رحلة بوطوكي (1761-1815).

[139] يذكر الرهوني عدد المساجد في تطوان، حيث بلغ عددها 52 : وأولها هو جامع القصبة والذي بناه المنظري، أنظر **عمدة الراويين في تاريخ تطاويين** أبو العباس أحمد الرهوني ج 2 تحقيق جعفر بن الحاج السلمي. منشورات تطاوين أسمير. ط 2 . 2001 .صص. 10-29

[140] شارل دو فوفكو. م.س. ص. 14

[141] وقد كانت جل المدن الكبرى في المغرب تضم حي لليهود يسمى الملاح، ولعل من بين أبرز الملاحات في المغرب كانت تتواجد في مدن الرباط وسلا ومكناس وفاس و القصر والعرائش وتطوان. وقد كاتن تعتبر هذه الملاحات من بين أغنى اللأحياء في المغرب، كون أن اليهود في تاريخ المغرب كان لهم دورا بارز، فمنهم تجار السلطان ومنهم المترجمين، ولهم من الإمتيازات ما يخول لهم كسب الأموال الطائلة. ما سيسبب غيظ الأهالي المغاربة ويقدموا على نهب هذه الأحياء، كما حصل إبان حرب تطوان حيث نهب الملاح اليهودي " ثم إن الخليفة مولاي العباس أمر

وأحسن مبنى رأيته في المغرب"[142] ومن هنا يعرج على البنية الإجتماعية للمدنية، حيث يقوم بإحصاء للساكنة بالمدينة ويقدر سكان المدينة مابين 20.000 و 25.000 نسمة من بينهم 600 يهودي تقريبا، وهذا الرقم هم الذي قال به الرهوني حيث جعله عددهم قبل الإحتلال، إلا أننا نلمس إختلاف في عدد اليهود حيث جعلهم الرهوني بين 7000 و 8000 بدل 600[143] هذا التضارب يرجع لكون المعطيات الإحصائية في هذه الفترة تكون شبه مستحيلة، إن لم نقل منعدمة، لأن الفترة كانت تعرف الكثير من الإضطرابات سواء السياسية والإجتماعية، أضف إلى ذلك عدم إهتمام الأهالي إحصاء السكان، اللهم بعض الإشارات التي وردت في بعض الرحلات. لينتقل بنا بعد ذلك إلى السلطة المركزية في المدينة والمتمثلة في حاكمها حيث يحدد مناطق نفوذه يقول " وتشمل سلطة هذا القائد المنطقة الواقعة بين البحر والقبائل المستقلة بالريف من جهة وعملات طنجة والعرائش من جهة أخرى"[144] من هنا ينتقل ليصف لنا وادي تطوان [145] " جوار المدينة كثير الخصوبة ويتوفر على بساتين شاسعة ومشهورة في جميع شمال المغرب. تصدر فواكهها إلى كل من مدينتي القصر الكبير وفاس. وادي نهر تطوان، بعدما يضيق قبالة المدينة حتى تختنق، يتسع جدا بعد المدينة مباشرة. وفي نفيس الوقت ينخفض علو الجبال المحيطة بالمدينة حتى تصير تلالا بعد أن كانت عالية جدا إلى هنا. من هنا حتى البحر، ليس الوادي إلا حقل شاسع من القمح تتخلله ضيع وبساتين" [146] رغم هذا الإعجاب الكبير بالمدينة إلا أنه يصرح بأنها لم تكن ضمن مخططاته، فمكوثه بها لمدة 10 أيام كانت بسبب الصعوبات التي وجدها في العثور على مرشد ليوصله لفاس عبر طريق سطره مسبقا، يمر على الشكل التالي: "تطوان- بني حزمر- بني حسان- الأخماس- بني زروال- بني حامد-رهونة-شراكة-فاس"[147] كما سبق وأشرنا أن شارل دو فوكو حاول سلك طرق وعرة وخطيرة مبتعدا عن المدن، متوغلا في البوادي والقرى. وهذا كان هو الهدف من رحلته إكتشاف طرق وممرات جديدة، غير الممرات والطرق الرسمية. وبعد إنتهاء

بإخراج ما كان عنده من المال في المدينة ..... وأكثر من نهب الديار المتنصرة من أهل تطوان الذين جلسوا مع النصارى، وأما جيش العباس فغالب نهبهم الملاح" **تاريخ تطوان** محمد داود المجلد 4 ص 204

[142] شارل دو فوفكو. م.س.ص. 14

[143] "إعلم أن تقدير عدد السكان على التحقيق كان قبل الإحتلال غير متيسر لأسباب، أما على التقريب فكان عدد المسلمين يتراوح مابين العشرين ألفا نفس، إلى نحو الخمسة والعشرين ألفا. وكان عدد اليهود يتراوح بين السبعة آلاف إلى ثمانية آلاف " **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**" أحمد الرهوني ج.2. ص. 5

[144] شارل دو فوفكو. م.س. ص. 14 وهنا نشير أن أسرة أشعاش هي التي كانت تسيطر على مقاليد الحكم، حيث ولي عبد القادر أشعاش حاكما على المدينة من قبل السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان 1278 هـ / 1862 أنظر ترجمته عند كل من: الرهوني ج 2 صص 72-81 . و محمد داود المجلد 6 صص 11-13

[145] والمقصود به هو سهل مارتيل

[146] شارل دو فوفكو. م.س ص 14 ص

[147] م.س صص 14-16

العشرة أيام قرر شارل إكمال رحلته في إتجاه فاس. فإنطلق يوم 4 يوليوز عائدا عبر الطريق التي جاء منها، فلم يصفها كونه وقف عليها كما سبق ورأينا إلا أنه في هذه المرة سيقف لنا على معلمة طبعت المنطقة، ولم يقف عليها في طريقه لتطوان. الأمر يتعلق بفندق "عين الجديدة"، والذي نزل به يقول" خلال هذا اليوم إكتفيت بالإلتحاق بالفندق الذي كنت قد مررت أمامه سابقا ما بين طنجة وتطوان"[148] وبعد قضاء الليلة في الفندق، نجده يصف لنا الطريق التي سلكها حتى بلغ مدينة القصر الكبير.

خلاصات عامة :

إن ما قام به الرحالة الفرنسي شارل دوفوكو charles de foucauld. يعد فريدا من نوعه كونه زار مناطق متعددة من المغرب من مدن وبوادي لكننا نسجل ملاحظات هامة حول هذه الرحلة:

1- نلمس في الرحلة عدم التفصيل في المدن بخلاف القرى فلا يسهب الحديث في المدن وما تحتويه

من معالم عمرانية وبشرية بقدر ما يركز كل إهتمامه على الأحواز وأهلها، فكمثال على ذلك يقول بخصوص مدينة طنجة " لم يكن لدي أي شيء جديد أريد الوقوف عليه في هذه المدينة المعروفة من خلال عدة كتابات سابقة، فقد كنت أتعجل مغادرتها. فمحطتي الأولى لابد أن تكون مدينة تطوان" يستشف من كلامه أنه كان مستعجل الوصول إلى مدينة تطوان، و التي لم تذكرها الكتابات بكثرة كما هو حال مدينة طنجة، فالرحالة يبحث عن الجديد ويبتعد كل البعد عن الأشياء المألوفة، فيا ترى لما هذا الإصرار؟؟؟.

وبخصوص وصفه لمدينة تطوان سنجده يستطرد بإقتضاب لمكونات المدينة، حيث وصف الجانب الإقتصادي للحي التجاري، وقال بأنه ينتعش يوم الأربعاء. ويصف الملاح اليهودي في تطوان، فرغم الإعجاب الكبير له بالمدينة إلا أنه يصرح بأنها لم تكن ضمن مخططاته، فمكوثه

---

148 هذا الفندق هو فندق عين الجديدة، والذي يقع بين الطريق الرابطة بين مدينة طنجة وتطوان، بالضبط بين مدشر الزينات وواد بوصفيحة، وقد أورد وصفه لنا على النحو التالي "الفندق حيث قضينا الليلة مكان مسور، مربع الشكل، بداخله سقيفة، يستقر المسافرون في هذا الملجأ وتبقى الحيوانات وسط الحظيرة. يتقاضى صاحب المكان أجرة ضئيلة مقابل إيواء البشر والبهائم، إضافة إلى هذا فإنه يبيع الشعير والتبن لإطعام البهائم"**التعرف**. م.س ص 23. وحسب الرسالة المؤرخة بتاريخ 12 رجب عام 1312هـ الموافق ل 28 ديسمبر 1894م فقد نصت على وجوده في قبيلة وادرس، وقد كانت تعلوه نقيشة كتب عليها سنة تشيده 1256هـ الموافق 1838 بأمر من المولى عبد الرحمان بن هشام. ومكان الفندق هو "الفَنْدَقْ"الحالي والذي نجده قبل النزول لعين الحصن قادمين من طنجة، فهو في أعلى الجبل فنفس الموصفات تتوفر في المنطقة، حيث يوجد بها مكان تتوفر فيه كل أوصاف شارل دوفوكو. إلا أننا أيضا نستدل على الأمر من خلال الإشارات التي وردت في الرحلة كالوقت مثلا، فالمدة التي إستغرقها شارل من الفندق إلى دخوله تطوان لا تتعدى3 ساعات، ما يجعله قريب من تطوان بعيدا عن طنجة. والأمرالثاني يتعلق بالمكان عينه حيث أنه يصف واد بوصفيحة ومحيطه مباشرة بعد الفندق، مما يجعلنا نحصر المسافة بين الفندق ومدينة تطوان وتقلصها. هذا بالإضافة إلى الخريطة التي أوردها في كتابه، قمنا بحساب المسافة وجدناها 40 كلم، كما أن الكثير من المعارك وقعت بهذا الموضع، نذكر منها معركة عين جديدة مع الإسبان سنة 1919م.

بها لمدة 10 أيام كانت بسبب الصعوبات التي وجدها في العثور على مرشد ليوصله لفاس عبر طريق سطره مسبقا كما رأينا.

ولكننا نلمس في الرحلة صدى عميق لأحواز المدن والبوادي الواقعة بين مدينة وأخرى، فنجده يدقق في الطرق والقرى وصداها داخل الحواضر المغربية الكبرى. ويهتم كذلك بالتنظيم السياسي والعلاقات التي كانت تربط القبائل بدولة السلطان، وهذا ما يجعلنا نتساءل حول هذا النهج الذي يسلكه، فلما كان يقصد الطرق الوعرة؟؟؟ ولما كان يخترق الوديان والأنهار؟؟؟ ولما كان يتساءل دوما عن معاملة المخزن لهذه الأحواز؟؟؟ هذه مجموعة من الإشكالات تبرز أمام قارئ الرحلة وتضعه في حيرة من أمره، فسلوكه هذا المنوال يوحي لنا بأنه كان يحاول معرفة قوة المخزن المغربي في هذه البوادي، ومراقبة المخزن من خارج أسوار المدن هذا من جهة، ومن جهة ثانية تسهيل المأمورية في معرفة بنية البادية المغربية، وطرقها كي تستغل كنقطة تفوق لصالح دولته. فنحن نعلم أنه ضابط بالجيش الفرنسي وأوكلت له مأمورية الرحلة، أي أن الرحالة بمثابة تقرير عسكري عن الأوضاع العامة بالمغرب خلال هذه الفترة، لذا سنجده في سنة 1884 وعلى اثر انتهاء الرحلة وتحرير الكتاب، تلقى شارل دو فوكو تنويها وميدالية ذهبية من قبل " الجمعية الجغرافية بباريس".

2- إن ما يمكننا تسجيله أيضا على هذه الرحلة هي حملها لازدواجية في الخطاب وخاصة فيما يتعلق بالجانب التنظيمي فنجده يحاول تكريس مفهوم "بلاد المخزن" و "بلاد السيبة" في أكثر من موضع، فعلى سبيل المثال في وصفه للطريق الرابطة بين طنجة وتطوان قال "الطريق آمنة خلال النهار، لم تبق كما كانت عليه عند غروب الشمس، الفرسان الخيالة، مدججين بالسلاح، يأخذون مواقعهم عند أبواب القرى، قرب قطعان الماشية على ربوات يراقبون المحاصيل الزراعية من فوقها. يعكر الجوالة حياة الفلاح الضعيف، خاصة في بلاد المخزن" فهذه الإزدواجية لم يكن هو الوحيد الذي تبناها وإنما سنجد مجموعة من الباحثين بعده يتبنونها، ومن أبرزهم رواد البعثة العلمية بطنجة من أمثال "ميشو بلير" و "روبير مونطاني" و"جاك بيرك" وغيرهم فالمغرب في الوعي الكولونيالي الفرنسي كان مزدوجا، لكن هذا التقسيم غير دقيق يقدم فكرة مغلوطة عن المغرب، من الأكيد أنه توجد في المغرب مناطق خاضعة ومناطق غير خاضعة، بيد أنه من العسير تحديد دقيق لبداية منطقة ونهاية أخرى، ومن المستحيل العثور على حدود تفصل

بين بلاد السيبة وبلاد المخزن.[149] مما يجعلنا نتحدث عن نسق القبيلة بالدرجة الأولى، فشارل دوفوكو اهتم بالبيئة الطبيعية، فوصف التضاريس والغطاء النباتي ومجاري المياه. واهتم بالسكان، فذكر القبائل ووطّنها داخل المجموعات الكبرى. ووصف الموارد، ومستوى عيش السكان، وأنماط عيشهم. وتوقف عند عادات المناطق التي زارها، فسجل معطيات حول البناء واللباس والغذاء. ولكنه أغفل مجموعة من الأنشطة التي كانت تقام داخل أسوار المدن من حرف ومهن، فلما هذا الإغفال؟ سؤال لا نجد له جوابا، فعلى سبيل المثال مدينة تطوان كان بها من الحرف ما يشفي ويكفي، ولكنه لم يذكرها فنجده دائم التركيز على مجتمع البادية المغربية.

لقد صرفت جهود شارل دوفوكو كلها إلى التركيز على سلك الطرق الوعرة، والغير معروفة لدى الأوروبيين، رغبة منه في وضع خرائط دقيقة للمسالك الوعرة في المغرب، وهذا هو مبتغى الرحلة. حيث أنها ستمثل تقرير عسكري شامل للمغرب من الناحية الجغرافية والطبوغرافية. وبخصوص الطرق يعلق الأستاذ عبد الأحد السبتي بقوله "طريق السفارات، وهو محور ينطلق من مدينة طنجة، مقر "دار النيابة" والقناصل ممثلي "الأجناس"، ثم تتجه إلى إحدى عواصم السلطان، في شمال المملكة أو جنوبها .ولهذه الرحلة إيقاعها، وترتيباتها، وطقوسها. وهي في الغالب رحلة نمطية، من حيث مسالكها، ومحيطها البشري. طريق المستكشفين، من فرنسيين، إسبان، وأنجليز، وألمان. اختلفت ظروف هؤلاء، وحوافزهم، وعلاقاتهم مع مؤسسات بلدانهم. غير أن قدرا من المغامرة، والخروج عن المسالك ''الرسمية'' كانا يشكلان القاسم المشترك بين هؤلاء الرحالة، المؤلفين الذين تركوا نصوصا صمدت حتى الآن بفضل حجم وأهمية المعطيات التي سجلتها. ذلك أن الرحالة انتبهوا لجوانب لم تكن تثير فضول المؤلفين المغاربة في ذلك العصر، بيد أنها أصبحت تثير اهتمام الباحث في مجالات مثل تاريخ المجتمع والحياة اليومية[150]

فكان هذا من بين أهم الأهداف التي سطرت للرحلة، وتبعه بعد ذلك مجموعة من الرحالة الأوروبيين، ولكن تبقى رحلة شارل دوفوكو لها خصوصية تميزها عن باقي الرحلات، سواء السابقة لها أم التي أتت بعدها. فالترتيبات التي سبقت الرحلة كانت تنم عن ذكاء ودراسة مدققة، وتبنى دوفوكو فكرة التنكر واستعارة الهوية اليهودية. لم يكن هذا التنكر يعني الاندماج في الأوساط

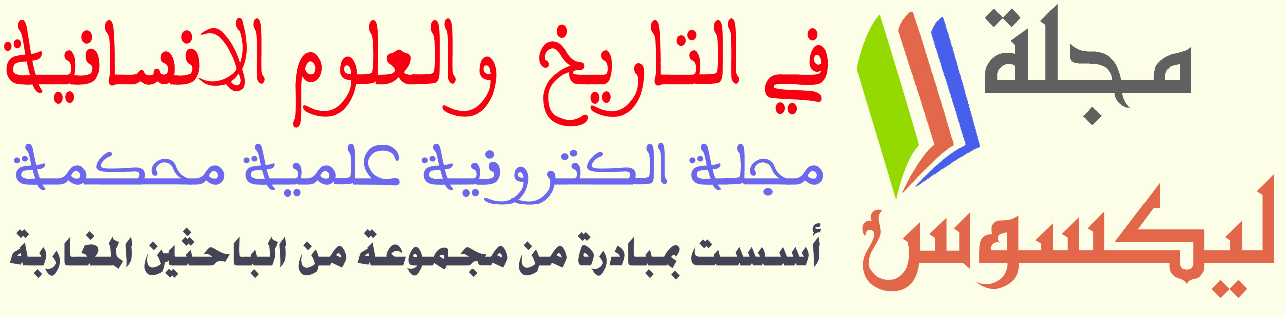
---

[149] إدوارد ميشوبيلير، **صورة جبالة في الوعي الكولونيالي الفرنسي نصوص مختارة من الوثائق المغربية**. ترجمة د.حنان المدراعي. منشورات باب الحكمة. تطوان. بدون تاريخ. ص. 7

[150] عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الإستعمار**. ط .1 الدار البيضاء. 2009 . ص. 35

اليهودية بالمغرب، أو حتى التعاطف مع ساكنة الملاحات، بل تدلّ بعض المؤشرات على تحفظ الرحالة الفرنسي وتبنيه لعدد من الأحكام السلبية إزاء هذه الجاليات. بيد أن الهوية المستعارة كانت عنصرا امنيا وعمليا بالأساس، إذ بفضلها تمكن دوفوكو من الاشتغال وتسجيل ملاحظاته الجغرافية الدقيقة بعيدا عن الأنظار المتشككة. ومن أجل نفس الهدف، تعلم دوفوكو اللغة العربية، وقدرا من الأمازيغية، ونزرا يسيرا من العبرية. وهذ يجعلنا نتسأل هل إطلع دوفوكو على رحلة علي باي العباسي والذي تنكر قبله. فهذا الأخير كان قد تم التشكيك فيه وتعرفوا على شخصيته الحقيقة بخلاف شارل دوفوكو، الذي أتم مهمته بسلام في المغرب وغادره أمنا مطمئنا، حاملا معه مسودته التي سجل فيها كل الملاحظات، ومنها إعتكف على إخراجها في الشكل النهائي والذي وصلنا فسماها بالتعرف على المغرب.





العدد الثامن ـ دجنبر 2016

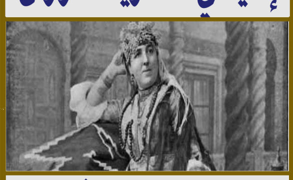


المساهمون في هذا العدد:

- خالد الصقلي
- محمد حماس
- عبد الرزاق السعيدي
- مصطفى أبسان
- خالد الغالي
- خالد أوعسو
- محمد أبيهي
- عبد الحكيم الزاوي
- رضوان ايت اعزى
- موسى المودن
- محمد العاقل



إميلي: شريفة وزان



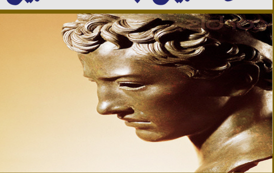
تثمين التاريخ الشفهي



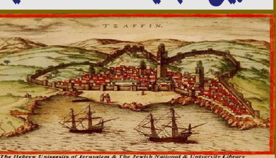
قضايا مناهج التاريخ



من تاريخ بلاد الأمازيغ



تاريخ البنيات الاقتصادية



قضايا من علم الاجتماع



مواقع الكترونية مفيدة:

الجمعية المغربية للبحث التاريخي: www.amrh.ma
موقع الاستقصا: www.alistiqsa.com
بوابة تاريخ المغرب: www.maroc-histoire.net

ملف العدد:

الكنوز بسوس بين الخبايا والدسائس ومافيا النفائس

صورة العدد

شريف وزان وزوجته البريطانية Emily KEENE

www.maroc-histoire.net lixus@maroc-histoire.com



محاور العدد

- مناهج التاريخ . التاريخ الشفهي . التحقيب التاريخي - رحلة شارل دو فوكو الى شمال المغرب
- قضايا من علم الاجتماع . العلاقات المغربية الجزائرية . البنيات الاقتصادية وواقع المبادلات البينية بالمجال المغاربي:نهاية العصر الوسيط . مفاهيم ومقاربات نظرية في دراسة المجتمع المغربي . إميلي،شريفة وزان

جميع الحقوق محفوظة لمجلة ليكسوس الالكترونية
المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

المدير المسؤول:محمد أبيهي